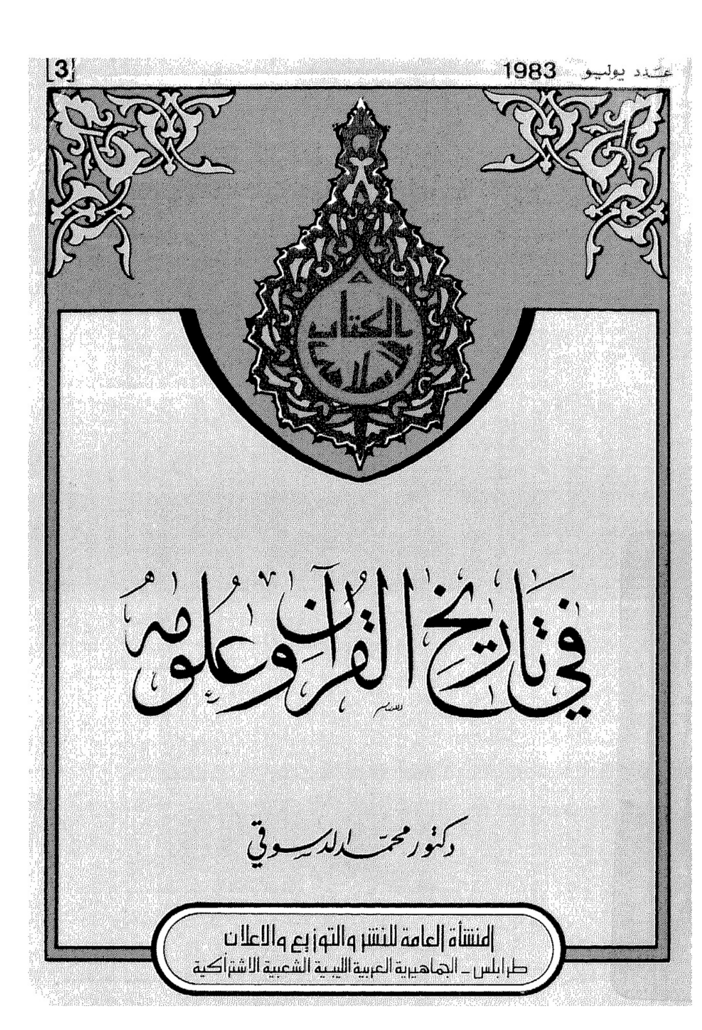

عدد يوليو 1983
[3]
الكتاب الإسلامي
في تاريخ القرآن وعلومه
دكتور محمد الدسوقي
المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية


في تاريخ القرآن وعلومه

إهـــــــداء 2005
اللجنة الشعبية العامة للثقافة
الجماهيرية العربية الليبية



[3]



يوليو
1983

دكتور محمد الدسوقي



المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الطبعة الأولى

1392 و.ر 1983 م

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان

طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

صندوق البريد 959

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنَّ هذا القرآن يَهْدي لِلَّتي هِي أَقْومُ ويُبَشِّر المُؤمنينَ الَّذين يَعْملونَ الصَّالحاتِ أنَّ لهُم أجْراً كبيراً ﴾ (الآية التاسعة في سورة الاسراء) .

روى الامام الترمذي عن الامام علي كرم الله وجهه مرفوعا قال : « . . . أما إني سَمِعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ألا إنها ستكون فِتْنَةٌ ، فقلت : ما المخْرَج منها يا رسول الله ؟ قال : كتابُ الله فيه نبأ ما قبلكم وخَبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل مَنْ تركه مِنْ جبار قصمَه الله . ومن ابْتَغى الهُدَى في غيره أضلَّه الله وهو حَبْل الله المتين ، وهو الذِّكر الحكيم ، وهو الصِّراط المستقيم ، هو الذي لا يَزِيغُ به الأهواء ، ولا تَلْتَبِسُ به الألسنةُ ، ولا يَشْبَعُ منه العلماءُ ، ولا يَخْلَقُ من كَثْرة الرَّدِّ . ولا تَنْقَضِي عجائبُه ، هو الذي لم تنته الجنُّ إذ سَمِعتْه حتَّى قالوا : إنَّا سمعنا قرآنا عَجَبَا يَهْدي إلى الرشدِ فآمنَّا به ، مَنْ قال به صَدق .

ومن عَـمِـل به أُجِـرَ ، ومَـنْ حـكَـمَ به عَـدَل ، ومَـنْ دَعا إليه هُـدِيَ إلى صراطٍ مُـسْـتَـقِيم »

« سنن الترمذي حـ 4 ص 345 ، باب ما جاء في فضائل القرآن »
ت : عبد الرحمن محمد عثمان

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله أجمعين ، سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحابته ، ومن اهتدى بهديه ، ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد فقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق بشيرا ونذيرا ، وأنزل عليه القرآن هدى ونورا ، وجاء هذا الكتاب العزيز مهيمنا على كل الكتب التي أنزلها على الانبياء والمرسلين الذين بعثوا قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن ثم كان القرآن الكريم آخر الكتب السماوية ، وكان دعوة للناس كافة ، وكان محفوظا من التحريف والتبديل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولا مجال لبيان اثر القرآن الكريم في حياة البشرية بوجه عام ، وفي حياة العرب بوجه خاص ، وتكفي الإشارة إلى أن التقدم العلمي الذي تنعم الانسانية في العصر الحاضر بثمراته الحضارية هو بعض آثار القرآن الكريم ، ونتيجة للقيم والمثل

التي دعا اليها وآمن المسلمون بها ـ بصرف النظر عن انحراف الحضارة المعاصرة عن الطريق المستقيم ، فلهذا الانحراف أسبابه التاريخية المعروفة ، والمتمثلة في الصراع بين زعماء الاصلاح ورجال الكنيسة في أوربا في بداية عصر النهضة ، وما تمخض عن هذا الصراع من عقائد ومبادىء قادت التطور العلمي والاجتماعي نحو حضارة شوهت الفطرة الانسانية ، ولا تقيم لموازين الدين والعدالة والفضيلة شأنا ذا بال .

لقد أخرج القرآن الكريم البشرية من الظلمات إلى النور ، وحرر الإنسان من عبودية غير الله ، وبين له سبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ، ولذلك كان حرص المسلمين شديدا على حفظ هذا القرآن وفهمه والعمل به ، وكانت كل العلوم التي عرفها المسلمون ، وابتكروا فيها من أجل خدمة القرآن والالمام بطرف من أسراره ومعانيه ، حتى يعتصموا دائما به ، ولا يحيدوا عنه .

وهذه الدراسة الموجزة عن تاريخ القرآن وعلومه محاولة لالقاء بعض الضوء على هذا الكتاب المعجز الخالد ، لعلها تكون بداية للاستزادة والدراسة الموسوعية ، فنحن أمة لا حياة لها بغير هذا الكتاب ، وعلينا أن نعكف عليه تلاوة ودراسة

وحفظا وفهما ، وأن يكون كل هذا وسيلة للغاية المقدسة ، وهي عبادة الله وخشيته ، وعمارة هذه الأرض ، والتمكين لكلمة الله فيها حتى تكون هي العليا دائما ، يقول الامام الشاطبي : إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة ، وعمدة المِلَّة ، وينبوع الحكمة وآية الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر ، وأنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشيء يخالفه[1] .

وأخطر ما يتعرض له المسلمون منذ عصور الضعف والتقليد أن أصبحت الدراسات القرآنية ، وما يدور في فلكها لا تعكس واقعا عمليا في حياة المجتمع الاسلامي ، فأصابه من جراء ذلك ما أصابه من التمزق والتخلف والغزو الأجنبي بصوره المتباينة ، وفي مقدمتها الغزو الفكري ، وهو أشد فتكا بحرية الأمم وكرامتها من الغزو العسكري .

وقد قسمت هذه الدراسة بابين : تناولت في الباب الأول تاريخ القرآن من حيث نزوله وتدوينه واعجامه وطباعته . .

أما الباب الثاني فقد عقدته للحديث في علوم القرآن ،

---

(1) الموافقات جـ 3 ص 200 ط السلفية .

وهي كثيرة بلغ بها بعض العلماء ثمانين علما ، وقد آثرت أن أدرس طائفة من هذه العلوم دون أن أتناولها كلهابالبحث، لا لأن ما أغفلت الكلام فيه لا يرقى في الأهمية إلى درجة ما تحدثت عنه ، ولكن لأنه يدخل غالبا في نطاق تخصص علمي دقيق ، والغاية من هذه الدراسة تقديم صورة مجملة لجمهور الأمة عن الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ومن ثم تجاوزت القضايا الخلافية ، والمسائل الفرعية ، وكان اهتمامي منصبا على اعطاء القارىء فكرة عامة عن تاريخ القرآن وبعض علومه .

ولخصت في الخاتمة أهم نتائج هذه الدراسة ، وهي تمثل الجهود العلمية الفائقة التي بذلها العلماء في سبيل التعريف بالقرآن وفهمه والعمل به . كما تبدو أيضاً في تلك الآراء المضادة التي صدرت عن جمهور المستشرقين وأرادوا من ورائها الطعن في الوحي الإلهي ، ومحاربة فاعليته والحد من تأثيره وانتشاره ﴿ يُريدون أن يُطفئوا نورَ الله بأفواههم وَيـأْبَى الله إلاّ أن يُتمّ نورَه ولو كَره الكافرون ﴾ (1) .

ونظراً لأن قضايا تاريخ القرآن وعلومه متداخلة متكاملة

---

(1) الآية 32 من سورة التوبة .

كان التكرار في بعض الأفكار والنصوص أحيانا ، وما يترتب عليه من تكرار بعض الجمل والعبارات ، ولا بأس بهذا ما دام الأمر لا يتجاوز حدود الضرورة العلمية ، ولا يدخل في باب التكرار المخل أو الممل .

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل ، وأن يسدد خطانا على طريق الاعتصام بحبله ، والاستمساك بكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إنه سميع مجيب الدعاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

دكتور محمد الدسوقي
الاستاذ المشارك بكلية التربية
جامعة الفاتح

طرابلس في 20 / 11 / 1982

«الباب الأول»

«تاريخ القرآن»

الفصل الأول

« القرآن في عصر البعثة »

قبل الحديث عن القرآن في عصر البعثة تجدر الإشارة إلى طائفة من المسائل التي تدور في نطاق التعريف العام به ، وهي أشبه ما تكون بالمدخل أو التمهيد للدراسة التاريخية للكتاب العزيز .

ظاهرة الوحي :

جرت عادة بعض الذين كتبوا في تاريخ القرآن وعلومه أن يتناولوا بالبحث في مستهل مؤلفاتهم ظاهرة الوحي ؛ ليثبتوا أنها ظاهرة ممكنة وليست مستحيلة ، ولا ينكرها إلا المعاندون أو الذين في قلوبهم مرض ؛ ليصلوا من هذا إلى أن القرآن كتاب إلهي ، أوحى الله به إلى نبيه محمد كما أوحى إلى غيره من الأنبياء الذين خلوا من قبله ، وأن القرآن ليس أساطير الأولين كما زعم المشركون ، أو تلفيقات من الديانات والتقاليد الجاهلية كما زعم المستشرقون بوجه عام .

والحقيقة أن القرآن ذاته خير برهان على أنه ليس من

صنع بشر ، وأن هؤلاء الذين يثيرون الشبهات حوله يخادعون ولا ينظرون في القرآن نظرة بعيدة عن الهوى ، ومن هنا يصبحون كمن يخرج من الحلبة ويدّعي أنه يصارع خصمه ، ويعرف كيف يتغلب عليه . إن هؤلاء قديما وحديثا لا يتعاملون مع القرآن في موضوعية ، ولو فعلوا لغنموا خيرا كثيرا ، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

إن من يتلو القرآن أو يعيش مع تعاليمه وآدابه في صفاء نفسي ، ورغبة صادقة في معرفة الحق فإنه حتما سيسارع الى الإيمان به دون أن يخالجه ريب في أنه وحي من عند الله ، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

لذلك رأيت ألا أخوض في الحديث عن ظاهرة الوحي ؛ لأفند ما اثير من شبهات حولها ، فالقرآن نفسه خير رد على هذه الشبهات ، وخير دليل على أنه وحي من الله العليّ القدير [1] .

تعريف القرآن :

لم يشتهر كتاب على ظهر الأرض كما اشتهر القرآن

---

(1) انظر في الحديث عن ظاهرة الوحي مناهل العرفان للشيخ عبد العظيم الزرقاني حـ 1 ومباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص 22 ، والنبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص 69 .

الكريم ، ولهذا لم يكن الناس بحاجة إلى تعريفه ، ومع ذلك لجأ بعض العلماء إلى تعريف القرآن ، غير أنهم لم يجمعوا على تعريف واحد له ، وإن لم تكن بينهم اختلافات جوهرية؛ إذ مردها غالبا إلى زيادة قيد في تعريف دون آخر ، أو اهتمام بجانب من جوانب القرآن دون سواه ، ومن هذه التعاريف أن القرآن « هو كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين ، والمكتوب في المصاحف والمنقول الينا بالتواتر ، والمتعبد بتلاوته » [1] .

وكل من الكتابة في المصاحف والنقل الينا بالتواتر لا يدخل في حقيقة القرآن ؛ لأنه في زمن الرسول كان القرآن قبل أن يكتب في المصاحف ، ومن قبل أن ينقل الينا بالتواتر ، وإنما ذكرا في التعريف؛ لأن المقصود تعريف القرآن لأمثالنا ممن لم يشاهد الوحي ، ولم يدرك زمن النبوة ، والقرآن لا ينفك عن الكتابة في المصاحف ولا عن النقل بالتواتر ؛ ضمانا لحفظه ، ونقله إلى الأجيال المتعاقبة [2] .

على أن القرآن الكريم له أسماء كثيرة ، منها الذائع

---

(1) القرآن الكريم لأستاذنا الشيخ علي حسب الله ص 4.
(2) المصدر السابق .

كالكتاب والفرقان ، ومنها ما ليس مشهورا كالعربي المجيد ، ويبدو أن العلماء في حديثهم عن أسماء القرآن لم يفرقوا بين التسمية والوصف ، فأسرفوا في تعداد هذه الأسماء حتى بلغ بها بعضهم نيفا وتسعين اسما [1] .

وإذا كان القرآن والكتاب أشهر الاسماء فإن بين الكلمتين فرقا في الدلالة ، حيث لا تطلق الأولى إلا على كلام الله المعجز المنزل على خاتم الرسل والأنبياء ، على حين تطلق الثانية على كلام الله وعلى غيره ، وإن كانت في عرف المسلمين ـ إذا أطلقت ـ يراد بها القرآن الكريم .

وفي تسمية القرآن بالكتاب إشارة إلى جمعه في السطور ؛ لأن الكتابة جمع للحروف ، ورسم للألفاظ ، كما أن في تسميته بالقرآن إيماءة إلى حفظه في الصدور ؛ لأن القرآن مصدر القراءة ، وفي القراءة استذكار [2] .

يقول الدكتور دراز : وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ؛ أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا ، فلا ثقة لنا

(1) مباحث في علوم القرآن ص 21.
(2) المصدر السابق .

بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول الينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالاسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة الاسلامية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظا في حرز حريز ؛ إنجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون** ﴾[1] ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس ، فقال تعالى : ﴿ **والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله** ﴾[2]؛أي بما طلب اليهم حفظه .

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا الوحي جيء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ، ومهيمنا عليها ، فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائدا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سادًّا

---

(1) الآية 9 في سورة الحجر .
(2) الآية 44 في سورة المائدة .

مسدَّها ، ولم يكن شيء منها ليسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم [1] .

السورة والآية :

يبلغ عدد سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة . وتتكون كل سورة من آيات تتفاوت طولا وقصراً ، كما تتفاوت السور في هذا أيضا .

وللسورة من الناحية اللغوية عدة معان : منها المنزل المرتفع ، ومنه سور المدينة ، والشرف والمنزلة الرفيعة قال الشاعر :

ألم ترَ أن الله أعطاك سورة
ترى كُلَّ مُلكٍ دونها يَتذبْذَبُ

وقد أطلق على الطائفة المستقلة من آيات القرآن ، ذوات مطلع ومقطع ، أو فاتحة وخاتمة سورة ، إما لأنها تحيط بالآيات والكلمات التي تضمها إحاطة السور بالمدينة ، وإما لما في السورة [2] ، من معنى العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو

(1) النبأ العظيم ص 12 .

(2) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، للفيروز ابادي ، ت الشيخ محمد علي النجار جـ 1 ص 84.

السور ورفعته الحسية ، وإما لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سورة [1] .

والعلاقة بين المعنى اللغوي للسورة ، والمعنى الاصطلاحي واضحة ، وهذا يومىء إلى أن القرآن في نقله لبعض الكلمات من معانيها اللغوية إلى معان جديدة كالصلاة والزكاة والصيام . . . الخ لم يقطع الصلة بين المعنى اللغوي لهذه الكلمات ، والمعاني الاصطلاحية التي أضفاها عليها .

ويقسم العلماء سور القرآن الكريم من حيث الطول والقصر أربعة أقسام :

1 ـ **الطوال** : سبع سور هي : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الاعراف ، ثم يونس ، أو الانفال وبراءة معا .

2 ـ **المئون** : وهي التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .

3 ـ **المثاني** : وهي السور التي آيها أقل من مائة ؛ لأنها تثنى ـ تكرر وتعاد ـ أكثر من الطوال والمئين .

---

(1) تفسير القرطبي جـ 1 ص 57 .

4 ـ المفصل : وهي أواخر القرآن ، واختلفوا في تعيين أولـه على اثنـي عشر قولا ، فقيل : أولـه « ق » وقيل غــير ذلك . وصحح الامام النووي أن أوله الحجـرات ، وسمـي بالمفصل ؛ لكثرة الفصل بين سورة بالبسملـة ، وهـو يقســم ثلاثة أقسام :

1 ـ **طوال** : من أول الحجرات إلى سورة البروج .

2 ـ **أوسـاط** : من سورة الطارق إلى سورة لم يكن .

3 ـ **قصار** : من سورة إذا زلزلت إلى آخر القرآن [1] .

وقـد اختلف العلماء في ترتيب السـور في المصـحف ، فمنهم من يرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له في ذلك توقيف ، وأن الصحابة رضي الله عنهم قد اجتهـدوا في هذا الأمر ، ومنهم من يرى أن ترتيب بعض السور توقيفي ، وترتيب البعض الآخر اجتهادي [2] ، ومنهم من يذهب إلى أن هذا الترتيب توقيفي ، وقد علم في حياة النبـي صلى الله عليه وسلم ، وهو يشمل السور القرآنية جميعا ، وليس هناك دليل على عكس ذلك ، فلا مسوغ للرأي القائل أن ترتيب السـور

(1) انظر مناهل العرفان جـ 1 ص 345 .

(2) المصدر السابق ص 351.

اجتهادي من الصحابة [1] .

وسواء أكان ترتيب السور توقيفيا أم اجتهاديا فإنه ينبغي احترامه ، وبخاصة في كتابة وطبع المصاحف ؛ لأنه عن اجماع الصحابة ، والاجماع حجة ، ولأن خلافه يجر إلى الفتنة ، ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب [2] .

أما الآية فتطلق في اللغة على عدة معان : منها ، المعجزة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ﴾ [3] ، أي معجزة واضحة ، والعلامة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ﴾ [4] ، والعبرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ [5] ، والأمر العجيب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ [6] ، والبرهان والدليل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف

---

(1) انظر مباحث في علوم القرآن ص 70 — 71.

(2) مناهل العرفان حـ 1، ص 351

(3) الآية 211 في سورة البقرة .

(4) الآية 248 في سورة البقرة .

(5) الآية 50 ي سورة المؤمنون .

(6) الآيا 103 في سورة هود .

السنتكم وألوانكم ﴾ [1] ، والجماعة ، ومنه قول العرب : تخرج القوم بآيتهم ؛ أي بجماعتهم ، قال الشاعر :

خرجنا من النَّـقْـبَـيـنْ لا حـيّ مثلنا

بآيتنا نُـزْجي اللقاحَ المـطَـافِـلا [2]

وتطلق الآية في الاصطلاح على طائفة من القرآن ذات مطلع ومقطع ، « بداية ونهاية » مندرجة في سورة من القرآن .

وعلل صاحب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز هذا الاطلاق بأن الآية علامة دالة على ما تضمنته من الأحكام ، وعلامة دالة على انقطاعه عما قبله وعما بعده ، أو لأن فيها عجائب القصص والأمثال والتفصيل والاجمال ، والتميز عن كلام المخلوقين ، أو لأن كل آية جماعةِ من الحروف [3] .

وهذا التعليل يؤكد ما أومأت اليه آنفا من العلاقة

---

(1) الآية 22 في سورة الروم .
(2) انظر بصائر ذوي التمييز جـ 1 ص 85.
(3) انظر تفسير القرطبي جـ 1 ص 58.

والمناسبة بين المعنى الاصطلاحي والمعنى اللغوي لبعض ألفاظ وكلمات القرآن الكريم . وأقصر آية في الكتاب العزيز كلمة واحدة مثل : « والقمر » و« مدهامتان » وأطول آية هي آية المداينة ، وهي الآية رقم 282 في سورة البقرة ، وهي من أواخر آيات هذه السورة ، وتتحدث عن توثيق الدين ، وعدد آيات القرآن ستة آلاف آية ونيّف .

وقد انعقد اجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم بالمصاحف كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، وأنه لا مجال للرأي فيه ، بل كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها ، ثم يقرؤها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، ؤيأمر كتاب الوحي بكتابتها ، معينا لهم السورة التي تكون فيها الآية ، وموضع الآية من هذه السورة ، وكان يتلوه عليهم مرارا في صلاته وعظاته ، وفي حكمه وأحكامه [1] .

إن ترتيب الآيات بوضعها في السور ، وتأليف وحدة منها عمل تم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبتوقيف

---

(1) مناهل العرفان حـ 1 ص 330.

منه، وقرئت هذه السور كاملة في حياته [1] .

ومن ثم يكون من الخطأ البين أن يقال إن ترتيب الآيات عمل قام به الرسـول صلى الله عليه وسلـم ، وكذلك ترتيب السور ؛ ليخرج القرآن من محليته إلى عالميته ؛ لأن هذا القول يفتح بابا للزعم بأن الاسـلام دين العـرب وحدهـم ، وهـي دعوى يرددها المستشرقون ومن يدورون في فلكهم [2] .

وما دامت الآيات نزلت مفرقة بوجه عام ، وجاء ترتيبها لا عن اجتهاد أو رأي ، وإنما عن توقيف فليس في القرآن إذن ترتيب زمني أو موضوعي .

الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن :

إن مهمة الرسـول صلى الله عليه وسلـم لا تخـرج عن أمرين : تبليغ ما أنزل الله عليه إلى الناس ، وبيان ما خفـي عليهم من أحكام الاسلام . .

فأما التبليغ فقد امره الله تعالى به في قوله سبحانه : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت

(1) القرآن الكريم ، بحث للشيخ أمين الخولى ، منشور في دائرة معارف الشعب جـ 1 ص 37 .
(2) انظر العالمية الاسلامية الثانية للاستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد .

رسالته ﴾[1] فكان صلى الله عليه وسلم يقرأ ما أوحي إليه على من حضر ، ويبعث من حفظته من يعلمه لمن يرغب . وقد أقبل الصحابة رضي الله عنهم جادين على حفظ القرآن ، فكان منهم من يحفظ كل ما نزل ، ومنهم من يحفظ بعضه ، وكانت عنايتهم بالحفظ والتلقي أكثر من عنايتهم بالكتابة[2] .

وكان الصحابة ـ فوق هذا ـ يتدارسون القرآن ويستظهرونه ؛ ليتمكنوا من قراءته في الصلوات المكتوبة ليلا أو نهارا ، سرا أو جهرا ، وفي النوافل التي يتطوعون بها . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يساعدهم على هذا التدارس ، ويرغبهم فيه ، ويشجعهم عليهم ، بل كان عليه السلام يختار أعلمهم بكتاب الله ليفقه اخوانه ، فكان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل من الصحابة يعلمه القرآن ، وكان يُسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا[3] .

---

(1) الآية 67 في سورة المائدة .

(2) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ 1 ص 241.

(3) انظر مباحث في علوم القرآن ص 68.

لقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة ربـه ، وأدّى الأمانة كاملة وتحمل في سبيل ذلك ما تحمل من العنـت والأذى ، وخـاض ما خاض من الحروب والغزوات ، وأرسل رسله وكتبه إلى الملوك والأمراء في عصره ، ومـا كان كل هذا ليحمل أحدا على الايمان بما أرسل به حملا ، فلا اكراه في الدين ولكنها ضرورات التبليغ التي لا بد منها ، حتى تتحقق الحرية الدينية للناس كافة ، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

وأما البيان فقد أمره الله تعالى به في قوله : ﴿ وأنزلنـا اليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل اليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ [1] وقوله سبحانه ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الـذي اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [2] .

وقد بَـيَّـن الرسول صلى الله عليه وسلـم بسنته ـ بمفهومها الشامل ـ ما يحتاج من أحكام القرآن ومعانيه إلى بيان ، ومن ثم أمر الله الناس بطاعة رسوله ، وجعل طاعته طاعة له ﴿ ومـا آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنـه فانتهـوا ﴾ [3] ﴿ مـن

---

(1) الآية 44 في سورة النحل .
(2) الآية 64 في سورة النحل .
(3) الآية 7 في سورة الحشر .

يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [1] . ولذا كان لا سبيل للعمل بالقرآن على غير المنهج الذي انتهجه الرسول صلى الله عليه وسلم وبينه للناس ، ومن هنا كانت السنة النبوية مع القرآن أشبه ما تكون بالمذكرة التفسيرية للقانون ، توضح قواعده ومقاصده ، وتعين على تطبيق أصوله ومبادئه .

نزول القرآن :

من المسلم به أن القرآن الكريم ابتدأ نزوله في ليلة القدر من ليالي شهر رمضان المبارك على رأس الأربعين من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أول ما نزل قوله تعالى : **﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ﴾** [2] .

روى البخاري من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها « . . . حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال له : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء قال : فأخذني فغَطني [3] ،

(1) الآية 80 في سورة النساء .
(2) الآية 1 — 5 ـ في سورة العلق .
(3) أي ضمني وعصرني، ويروى ففتني والمعنى واحد ، (وانظر سيرة ابن هشام حـ 1 ص 236) .

حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . . . الخ الآيات . .

وقد نزل القرآن منجما بحسب الوقائع والأحوال غالبا في نحو ثلاثة وعشرين عاما ، وقد بيّن القرآن سر هذا التنجيم في موضعين منه :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ [1] أي أنزلناه مفرقا ليقوى فؤادك على حفظه وفهمه ، ومعنى رتلناه ترتيلا ؛ أي أتينا ببعضه إثر بعض على تؤدة ومهل [2] .

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أميا لا يعرف القراءة والكتابة ، ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴾ [3] ومن العسير على مثله أن

---

(1) الآيه 32 في سورة الفرقان .
(2) تفسير المراغي جـ 19 ص 10.
(3) الآية 48 في سورة العنكبوت .

يحفظ القرآن جملة واحدة ، فكان من فضل الله على نبيه أن أنـزل هذا الكتـاب منجما ؛ ليكون حفظـه له أيسر وأكمل ، وليكون في تتابـع الوحـي مع هذا تثبيت لفـؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم على مواجهة تحديات الكفر والطغيان ، فلا يضيق بما يلقـاه من ازورار واعـراض أو أذى واضطهاد ، ويمضي في طريقه يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ويجاهد في الله حق جهاده .

ب ـ قوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾[1] ، أي وآتيناك قرآنا فرقناه ؛ أي أنزلناه مفرقا منجما ؛ لتقرأه على الناس على مهل وتؤدة ؛ فيكون ذلك أيسر لحفظ الناس إياه ، وأعـون على فهمهـم له ، وعملهم بما فيه[2] .

لقد كانـت العـرب قبـل الاسـلام من النـاحية العقلية والاجتماعية في حال لا تهيئهـم كثـيرا لتلقـي كتـاب كامـل ، وصحف تامة ، فكانت الحكمة في أن ينزل إليهم القرآن منجما مفرقـا ، يتلقونـه شيئـا فشيئـا ، وقـد احتفـت به مناسبـات

---

(1) الآية 106 ، في سورة الإسراء
(2) القرآن الكريم لأستاذنا الشيخ علي حسب الله ص 32.

النزول ، وتوجهت النفوس إلى تلقيه ، فكانت أكثر تهيؤا لقبوله .

كان نزول القرآن مفرقا خلال تلك السنين الطويلة أعون على حفظه ، وأثبت في وعيه ، وأبقى له على الدهر ، وأبعد له من شر التحريف أو التشويه [1] ، كما كان هذا التنجيم كذلك أعون على العمل بأحكامه ، والأخذ بتعاليمه ، حيث كانت العرب في بعض ما ألفت من العادات القبيحة والعقائد الفاسدة يصعب تركها لما درجت عليه دفعة واحدة ، فكان التدرج في التشريع سمة بارزة في منهج تقرير الأحكام في القرآن الكريم .

ويختلف الكتاب العزيز في هذا عن سائر الكتب السماوية التي خلت من قبله ، فقد نزلت دفعة واحدة ، ولم تنزل مفرقة كالقرآن المجيد .

وإذا كانت الآيات الأولى من سورة العلق هي أول ما نزل من القرآن بلا خلاف فإن آخر ما نزل منه قد اختلف العلماء فيه ، وتعددت أقوالهم حوله ، وهذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ذهب إلى ما

---

(1) دائرة معارف الشعب حـ 1 ص 8.

ذهب إليه بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل[1] ، فَلِقاء الصحابة للرسول صلى الله عليه وسلم في الأيام الأخيرة من عمره مختلف ؛ من حيث أنه لا يعرف بالضبط أيهم كان لقاؤه آخر لقاء ممن سمعوا ، ومن ثم تباينوا في معرفة آخر ما نزل من القرآن إلى أقوال بلغ بها بعضهم عشرة [2] .

ويرجح بعض الباحثين في علوم القرآن أن قوله تعالى : **﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾**[3] آخرُ ما نزل من القرآن على الاطلاق ، وذلك لأمرين :

أحدهما : ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين ؛ بسبب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم المعاد ، وما تنوه به من الرجوع الى الله ، واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم ، وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام التي وردت تلك الآية في سياقها ، فقد ذكرت

---

(1) انظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ 1 ص 28.
(2) مع نزول القرآن الكريم للدكتور محمد محمد خليفة ص 21.
(3) الآية : 281 في سورة البقرة .

قبلها آيات تحريم الربا ، وهي آخر ما نزل في رأي بعض العلماء ، وجاءت بعدها آية المداينة وهي أيضا آخر ما نزل فيما يروى عن الإمام سعيد بن المسيب (ت : 93 هـ) .

وثاني الأمرين : ما أخرجه ابن ابي حاتم قال : آخر ما نزل من القرآن كله ﴿**واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله...**﴾ الآية وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليال ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول .

ورواية ابن أبي حاتم هذه تنص على أن الآية هي آخر ما نزل من القرآن كله ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ، ولم نظفر آيات الربا ، أو آية الدين بمثل هذا التنصيص [1] .

وأما آية المائدة التي اشتهرت بأنها آخر ما نزل ، لأنها تتحدث عن اكمال الدين واتمام النعمة ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾ [2] وقد نزلت في يوم عرفة عام حجة الوداع ، وعاش بعدها النبي صلى الله عليه وسلم واحدا وثمانين يوما فليست آخر ما نزل ، لأن هناك قرآنا نزل بعد هذه الآية ، واكمال الدين فيها لا يعني

---

(1) انظر مناهل العرفان جـ 1 ص 90 .

(2) الآية 3 في سورة المائدة .

اكمال الفرائض والأحكام ، وأنه لم ينزل بعدها آية تتناول الحلال والحرام ، فقد نزل بعد حجة الوداع آية الربا والدين والكلالة ، والأقرب أن يكون معنى اكمال الدين فيها يومئذ هو انجاحه واقراره واظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون [1] .

وقد أول الامام الطبري معنى اكمال الدين في الآية باقرار المسلمين بالبلد الحرام ، واجلاء المشركين عنه ، حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون [2] .

وروى عن ابن عباس قال : كان المشركون والمسلمون يحجون جميعا ، فلما نزلت سورة براءة نفي المشركون عن البيت ، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة [3] .

كتابة الوحي :

كانت العرب أمة أمية ، ومع هذا كان في مكة - وهي بلد تجاري - من يعنى بالكتابة ؛ ضبطا للتجارة ، ومن ثم روى أنه وجد رجال كاتبون في مكة ، بل ونساء كاتبات [4] ،

---

(1) مناهل العرفان حـ 1 ص 96.

(2) انظر تفسير الطبري حـ 9 ص 520 ط 2 دار المعارف .

(3) انظر الاتقان حـ 1 ص 81 ت : أبو الفضل أبراهيم .

(4) دائرة معارف الشعب حـ 1 ص 13.

وذلك قبيل البعثة :

كذلك كانت يثرب ، فقد كان فيها كاتبون ، بل يبدو أن هؤلاء كانوا كثيرين ، يوحي بهذا أسرى بدر الذين كانوا يفـدون أنفسهـم بأن يعلـم كل منهـم عشرة من صبيان المسلمين .

ومن هؤلاء الـذين كانـوا يعرفـون الكتابـة ، وارتضـوا الاسلام دينا اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا للوحي ؛ لكتابة ما ينزل منه عند نزوله ، ومن هؤلاء في مكة : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعامر بن فهيرة . فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى يثرب كان من كتاب الوحي فيها سوى هؤلاء : زيد بن ثابت وأبـي بن كعب وثابت بن قيس ، وكان زيد بن ثابـت ألـزم الصحابـة لكتابة الوحي بين يدي رسول الله صلى الله علية وسلم[1] .

وكان عليه الصلاة والسلام يدل كتاب الوحي على موضع المكتـوب من سورتـه ، فيكتبونـه فيما يسهـل عليهـم من العُسب ، وهو جريد النخل يكشط خوصه ويكتب على ما استعرض منه ، والأقتاب ، وهو ما يوضـع على ظهـر البعـير

(1) انظر مجلة « منار الاسلام » العدد الأول من السنة الخامسة ص 52.

ويركب عليه ، وهو من الخشب ، واللخاف ، وهي صفائح من الحجارة الرقاق ، والأكتاف ، وهو عظم الكتف من الإبل والغنم ، والرِّقاع ، وهي الصحيفة من الجلد أو الورق .

وكان ما يكتب يوضع في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا انقضى العهد النبوي السعيد ، والقرآن مجموع على هذا النمط ، بيد أنه لم يكتب في صحف أو مصاحف ، بل كتب منثورا بين الرقاع والعظام ونحوها[1] .

وكان ما يكتبه كتاب الوحي يتناقله بعض المسلمين ، يشهد لهذا قصة اسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد كان كاتبا ؛ لأنه حين علم أن أخته وزوجها قد آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم دخل عليهما حانقا يريد الفتك بهما ، وقد سمع حين دنا من باب البيت قراءة خباب بن الأرتّ عليهما من صحيفة فيها سورة « طه » ولما طلب من أخته أن تعطيه الصحيفة وكانت قد وارتها تحت فخذها ، أبت ؛ خوفا عليها منه ، ولكنه حلف بآلهته ليردنها إذا قرأها اليها ، فدفعتها إليه ؛ طامعة في اسلامه ، فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، ثم رغب في معرفة مكان الرسول صلى

---

(1) انظر مناهل العرفان حـ 1 ص 239.

الله عليه وسلم ليذهب إليه ، وبين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم نطق عمر بالشهادتين ، وأصر على أن يجهر المسلمون بعبادتهم ، فهم على الحق وغيرهم على الباطل ، ومن ثم سمي بالفاروق[1] .

وقد أومأت سابقا إلى أن الصحابة كانوا يتدارسون كتاب الله ، وأنه كان يسمع لهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة القرآن ، وأن كثيرا منهم كان يتلقى ما ينزل من الآيات فيحفظها ثم يفهمها ويعمل بها ، لقد كان الجميع في شوق بالغ لسماع ما ينزل به الوحي ، وكان من شهد منهم قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ من غاب ، بل ان منهم من كان يتناوب مع غيره في النزول إلى المدينة لتتبع أخبار الوحي ، حتى لا يفوته منها شيء ، فهو التعاون على البر ، والحرص الشديد على الخير ، وهذا كله آية على عناية المسلمين الفائقة بالقرآن حفظا وكتابة ومدارسة وفهما وعملا ، وأن هذه العناية آية من آيات حفظ هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من التحريف والضياع كما حدث للكتب السماوية التي أنزلت قبله ؛ لأنه آخر كتاب

---

(1) انظر سيرة ابن هشام جـ 1 ص 342.

ينـزل ، فإذا اعتـوره شيء من ذلك انحرفـت الشريعـة إلى الأبد ؛ لعدم مجيء هداية بعده[1] .

لقد دون القرآن كلـه في عهـد الرسـول صلى الله عليه وسلم في العسب واللخاف والاكتاف ونحوها ، لا يند عنهـا شيء منـه ، فضـلا عن حفـظ كثير من الصحابـة للقـرآن ، فالعرب أمة حافظة ، كما كان بعضهم يكتب لنفسه منه ما تيسر له أن يكتب ، وما كان الصحابة فيما يكتبـون يلتزمـون توالي السور وترتيبها ، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أنزلت أو كتبها ، ثم خرج في سرية ، أو لم يلق الرسـول صلى الله عليه وسلم وقتا ما فإنه كان يأخذ في حفظ أو كتابة ما ينزل بعد رجوعه أو لقائه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم يستدرك ما كان قد فاته في غيابه ، فيجمعه ويتتبعه على حسب ما يسهل له ، فيقع فيما يكتب تقديم وتأخير بسبب ذلك[2] .

ويمكن القول بعد هذا بأن أسباب حفظ القرآن الكريم في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ترجع الى ما يلي :

أولاً : نزول القرآن منجما ؛ فقد كان هذا من عوامل

(1) انظر دائرة معارف الشعب حـ 1 ص 16.

(2) مناهل العرفان حـ 1 ص 240.

حفظ الصحابة للقرآن ، وفهمهم بوجه عام لأحكامه ومعانيه .

ثانياً : كتاب الوحي الذين قاموا بأقدس مهمة في تاريخ البشرية ، ومن هؤلاء من كان يلازم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه المهمة كزيد بن ثابت .

ثالثاً : قوة حافظة العرب ، فقد كان الواحد منهم يحفظ ما يسمعه مرة واحدة .

رابعاً : حرص المسلمين على العناية بالقرآن كتابة وحفظا ؛ لأنه أساس الشريعة ودستورها .

والجدير بالاشارة إليه أن جبريل عليه السلام كان يعارض (يقابل) الرسول صلى الله عليه وسلم بما أنزل من القرآن في رمضان من كل عام ، وفي رمضان الذي توفى بعده رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضه جبريل مرتين ، روى البخارى عن فاطمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أسر اليها أن جبريل يعارضه بالقرآن كل سنة ، وأنه عارضه في العام الذي توفي فيه مرتين ، وقال لها : ولا أراه إلا قد حضر أجلي[1] .

وروى أن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة للقرآن .

وقبل أن يقيض الله رسوله إليه عارض الرسول ما أنزل عليه ربه

---

(1) صحيح البخاري حـ 6 ص 229.

بسوره وآياته على ما حفظه عنه حفاظ المسلمين ، فكان ما في صدور الحفظة صورة مما كان في صدر الرسول صلى الله عليه وسلم[1] .

---

(1) انظر تاريخ القرآن للاستاذ ابراهيم الابياري ص 86.

الفصل الثاني

« تدوين القرآن بين يدي ابي بكر وعثمان »

ظل القرآن الكريم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مفرق الآيات والسور على تلك القطع التي دون عليها ، فلما توفي الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتولى أبو بكر أمر المسلمين ارتد بعض العرب ، وأبى الخليفة الأول إلا محاربة هؤلاء الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة ، أو ادعوا النبوة وسعوا في الأرض فسادا ، وقتل من القراء ـ وهم حفظة القرآن ـ في حروب الردة ، وبخاصة في معركة اليمامة التي دارت رحى الحرب فيها بين المسلمين واتباع مسيلمة الكذاب خلق كثير من أجلهم سالم مولى أبي حذيفة .

وأزعج موت هؤلاء القراء ـ الذي ينتهي عددهم الى السبعين ، وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة [1] ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وخاف أن يضيع من القرآن بسبب ذلك شيء ، فأشار على أبي بكر رضي الله عنه بجمع القرآن ،

---

(1) مناهل العرفان جـ 1 ص 242.

وتردد هذا أول الأمر في الأخذ بما أشار به عمر ؛ لأنه كان وقافا عند حدود ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، يخاف أن يجره التجديد إلى التبديل ، أو يسوقه الانشاء والاختراع إلى الوقوع في مهاوي الخروج والابتداع [1] .

وبعد حوار بين الصديق والفاروق رضي الله عنهما تجلى لأبي بكر وجه المصلحة فيما أشار به عمر ، واقتنع بصواب الفكرة ، وشرح الله لها صدره ، وقد ندب للقيام بهذه المهمة زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وقد أسلفت في الفصل الأول أنه كان يلازم الرسول صلى الله عليه وسلم لكتابة ما يوحى به إليه ، وأنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن وكان مع هذا حافظا لكتاب الله ، ومعروفا بخصوبة عقله ، وشدة ورعه وعظم أمانته ، وكمال خلقه واستقامة دينه ، بيد أن زيدا تردد في قبول ما طلبه منه أبو بكر رضي الله عنه ، وما زال هذا به يعالج شكوكه حتى اطمأن قلبه ، واقتنع بصواب ما ندب إليه ، وان كان يدرك عظم المسئولية ، وأنها أثقل من نقل جبل من الجبال ، وفي ذلك يروي الامام البخاري في صحيحه أن زيد ابن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليّ أبو بكر مَقْتَل أهل

---

(1) المصدر السابق .

اليمامة (أي عقب استشهاد القراء في واقعة اليمامة) فإذا عمر ابن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال : إن القتل استحر (أي اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعُمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي اللهُ عنهما ، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خُزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من

أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر[1] رضي الله عنه .

وما رواه الامام البخاري يدل على مبلغ اهتمام كبار الصحابة بالقرآن وحرصهم الشديد على وقايته كل أسباب التحريف أو التشويه ، كما يدل على منزلة زيد ، وأنه كان أهلا للقيام بما ندب إليه .

ومع أن زيد بن ثابت كان من كتاب الوحي ، وحافظا للقرآن كله لم يستقل وحده بهذه المهمة ، وإنما شاركه فيها بعض الحفاظ الموثوق بحفظهم مثل أبي بن كعب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وكان زيد أشبه ما يكون برئيس للجنة عهد إليها بهذا العمل المقدس .

ولم يعتمد زيد ومن معه على حفظهم والنقل من القطع المنثورة التي دون عليها القرآن في زمن رسول الله صلى الله عليه

---

(1) صحيح البخاري كتاب « فضائل القرآن » باب جمع القرآن حـ 6 ص 225

وسلم ، ولكنهم التزموا بمنهج صارم في عملهم ؛ ضمانا لحياطة كتاب الله بما يليق به من التثبت البالغ والحذر الدقيق ، ويقوم هذا المنهج على الجمع بين الحفظ والكتابة ، فما كانوا يكتبون من القرآن آية حتى يجتمع عليها شاهدان من حيث اللفظ والأداء ، وهما الحفظ والكتابة [1] ، فلا يكتفي بشاهد واحد على كل من الأمرين ، بل يجب - كما يرى الجمهور - أن يشهد على الحفظ شاهدان عدلان ، ومثلهما على الكتابة ، بشرط أن يكون المكتوب ليس من الذاكرة ، وانما بإملاء الرسول صلى الله عليه وسلم ذاته ، وأنه جزء من التنزيل في صورته النهائية [2] .

وقد أخرج بن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب قال: «قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأت به ، وكانوا

---

(1) من روائع القرآن للدكتور محمد سعيد البوطي ص 94

(2) مدحل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ص 37.

يكتبون ذلك في الصحف والالـواح والعُسـب، وكان لايقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان. قال السخاوي في « جمال القراء » : المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو المراد أنهما يشهـدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن [1] .

ويقصد زيد بأنه لم يجد آخر سورة التوبة إلا مع أبـي خزيمة الأنصاري أنه لم يجدها مكتوبة مع أحد سواه ، مع أن زيدا كان يحفظها ، وكان كثير من الصحابة يحفظونها ، ولكنها الأمانة في النقل ، والورع في الدين ، وكأنَّ هذا الاستظهـار المتواتر لآخر سورة براءة قام مقام شاهدين بأن آخر تلك السورة كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] .

وكتب زيد والصحابة الذين أسهموا معـه في التـدوين القرآن كله ؛ طوعا لذلك المنهج الدقيق الصارم الذي يشهـد للمسلمين في حياتهم البـاكرة بأنهـم اتبعـوا في المحافظـة على كتابهم وتدوينه أدق وجوه البحث والتحري ، وأسلم أصـول التثبت العلمي[3] ، ومن ثم توافرت في كتابة القرآن في عهـد

---

(1) الاتقان جـ 1 ص 167.

(2) مباحث في علوم القرآن ص 76.

(3) مناهل العرفان جـ 1 ص 246.

أبي بكر الخصائص التالية :

أولاً : إن ما قام به زيد وبعض الصحابة من كتابة للقرآن كان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ببضعة شهور ، فقد توفي عليه الصلاة والسلام في ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة ، وكانت معركة اليمامة في آخر هذه السنة ، والفراغ منها في السنة الثانية عشرة كما رجح ابن الأثير ، أو وفق بين الآراء في هذا [1] ، وبذلك يكون هذا العمل قد تم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بفترة زمنية وجيزة لم تعهد في تدوين كتاب مقدس قبل القرآن ، وهذا يؤكد الكمال المطلق لما قام به زيد بن ثابت رضي الله عنه .

ثانياً : استغرقت مدة الكتابة نحو عام ، فقد توفي أبو بكر رضي الله عنه في جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة ، وكان أمره لزيد بتتبع القرآن وجمعه بعد معركة اليمامة ، وكان القرآن قبل وفاة الصديق قد تم تدوينه وحفظه لديه ، وهذا يدل على الجهد المبذول في هذا العمل ، إنه جهد رائع بلا مراء ، جهد في الفكرة ، وجهد في الجدل حولها والاقتناع بها ، وجهد في الكتابة من القطع المفرقة ، وجهد في لقاء

(1) انظر الكامل في التاريخ حـ 2 ص 366.

الصحابة وتوثيق ما لديهم من محفوظ أو مكتوب ، والكل حريص أبلغ الحرص على حياطة كتاب الله بما يليق به من العناية والرعاية ، فجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء .

ثالثاً : إن كتابة القرآن بعد موقعة اليمامة حققت المعنى المادي لجمع القرآن ، فقد كان مدوّنا من قبل ، ولكنه التدوين المفرق في الرقاع والعسب ونحوها ، وأصبح بعد تلك الموقعة مدونا في صحف مجموعة ، قال أبو عبد الله المحاسبي في كتابه « فهم السنن » : وكتابة القرآن ليست بمحدثة فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ، ولكنه كان مفرقا في الرقاع والاكتاف والعسب ، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعا ، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن منتشرا فجمعها جامع ، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء [1] .

وقال الإمام علي كرم الله وجهه : « رحم الله أبا بكر هو أول من جمع كتاب الله بين اللوحين » [2] .

---

(1) البرهان جـ 1 ص 239

(2) المصدر السابق .

رابعاً : أطلقت كلمة المصحف على هذه الصحف المجموعة ، ولم تطلق هذه الكلمة على القرآن قبل ذلك ، ويروى أن أبا بكر قال بعد أن أتم زيد ومن معه من الحفاظ مهمتهم : التمسوا له اسما ، فقال بعضهم : « السفر » ، قال : ذلك اسم تسميه اليهود ، فكرهوا ذلك ، وقال بعضهم : « المصحف » فإن الحبشة يسمون مثله المصحف ، فاجتمع رأيهم على أن يسموه « المصحف »[1] .

وكلمة المصحف وإن كانت حبشية الأصل فقد قربتها إلى المسلمين الأخوة اللغوية بين العربية والحبشية في الأسرة السامية[2] .

خامساً : كانت هذه الصحف مطابقة مطابقة كاملة للنص المنزل ، طبقا للعرضة الأخيرة ، ومن ثم اقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته ، وظفرت باجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها ، وخلت مما كان بعض الصحابة يكتبونه من الذاكرة على ما لديهم من صحف خاصة كتفسيرات أو ادعية[2] .

سادساً : لم يكن هذا المصحف الأول معجما ، وخلا

---

(1) الاتقان حـ 1 ص 166.

(2) دائرة معارف الشعب حـ 1 ص 20.

من أسماء السور والفواصل ، كذلك لم يكن مرجعا للقراءة أو المراجعة، بل هو أصل محفوظ يقي النص الديني من أن ينقص منه شيء ، أو يشتبه في بعض لفظه حافظ يقع عادة في مثل هذا الاشتباه على الرغم من قوة حفظه [1] .

سابعاً : إن طريقة كتابة هذا المصحف ـ لدى أكثر العلماء ـ اشتملت على الأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن ، فشابه في هذه الناحية جمع القرآن على عهده صلى الله عليه وسلم [2] .

وقد حفظ هذا المصحف لدى أبي بكر حياته ، ثم صار الى عمر حين خلفه ، وبعد وفاته صار إلى حفصة ابنته وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعل لهذه الزوجة من أمهات المؤمنين صفة خاصة أو ميزة خاصة إلى جانب بنوتها للخليفة وزوجيتها للرسول هي أنها كانت تقرأ وتكتب ، فهي أهل لحفظ الكتاب [3] .

الأحرف السبعة :

وقبل الحديث عما قام به ذو النورين من تدوين للقرآن في

---

(1) مدخل الى القرآن الكريم ص 37.

(2) مباحث في علوم القرآن ص 78.

(3). دائرة معارف الشعب جـ 1 ص 20.

العام الخامس والعشرين بعد الهجرة ، واثـر هذا التـدوين في جمع المسلمين على مصحف واحد سمي بالمصحف الامام تحسن الإشارة إلى أن القرآن الكريـم نزل بلغة قريش ، ولكن ظروف المسلمين في فجر الدعـوة اقتضـت اباحـة تلاوة هذا الكتـاب العزيز بأحرف متعددة تذكر الروايات أنهـا سبعـة ، وأن الله تبارك وتعالى قد رخص للمسلمين بهذا ؛ تخفيفا وتيسيرا ورحمة بهم ، فهم أمـة أمية ، تعـددت قبائلهـا ، فاختلفـت بذلك لهجاتها ، وتباين أداؤها لبعض [1] الألفاظ ، فكان يشق عليهم أن يقرأوا جميعا بحرف واحد .

روى الترمذي عن أبي بن كعب قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عند أحجار المروة ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : إني بعثت إلى أمـة أميين فيهم الشيخ الفاني والعجوزة الكبيرة والغلام ، قال : فمرهم فليقرأوا القرآن على سبعـة أحـرف » قال الترمـذي : حسن صحيح . وفي لفظ : فمن قرأ بحـرف منهـا فهـو كما قرأ » .

وأخرج الامام أحمد بسنده عن أبي قيس مولى عمرو بن

---

(1) انظر مباحث في علوم القرآن ص 113.

العاص عن عمرو : أن رجلا قرأ آية من القرآن فقال له عمرو : إنما هي كذا وكذا ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأي ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا .

وهذه الأحرف السبعة التي وردت في الأحاديث الصحيحة اختلف العلماء في تحديد المراد منها ، كما اختلفوا في عددها ، وهل هي محصورة في سبعة أم أن المراد بها التوسعة على القارىء دون الحصر ؟

والمعول عليه أن الاحرف السبعة لهجات مختلفة في اللغة العربية ، وأنها وجدت في القرآن جملة ، لا أنها سبع لهجات في كل آية وفي كل موضع من القرآن [1] ، كما أن المعول عليه أيضا أن لفظ السبعة لا يراد به الكثرة ، بل الحصر كما فهمه أكثر العلماء [2] .

إن الأحرف السبعة لا تكاد تخرج عن اختلاف في المد والقصر والاعراب والافراد والجمع والزيادة والنقصان ، والاعجام والامالة والادغام والترقيق والتفخيم والهمز

---

(1) انظر مقدمتان في علوم القرآن ت الدكتور أرثر جفري ص 228.
(2) مباحث في علوم القرآن ص 104.

والتسهيل وابدال حرف بآخر ، أو كلمة بغيرهـا ، أو تقـديم وتأخير ، فهي كما يقول عنها بعض العلماء : « لغات متفرقة في القرآن مختلفة في السمـع ، متفقـة في المعنـى ، أو مختلفـة في السمع وفي المعنـى ، وزيادة كلمـة ونقص أخـرى ، وزيادة حرف ونقص آخـر ، وتغيير حركات في موضـع حركات أخرى ، وتقديم وتأخير ومد وقصر ، وشبه ذلك ممـا يتعلـق بجوهر الكلمة أو كيفية أدائها »[1] .

ومن الواضح أن كلمة لغات لا يقصد بها المعنى العلمي المعاصر ، وإنما يراد بها اللهجات ، وأن الأحرف السبعة وجوه في الألفاظ ؛ توسعة وتيسيراً .

ويبدو مما تذكره بعض الروايات أن بعض المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعلمون أن الله قد رخص لهم في قراءة القرآن ؛ طبقا للأحرف السبعة التـي أنزل بها فكانوا يختلفون ويتجادلون ، ويلجأون في النهاية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم للفصل بينهم ، فيصـوب قراءة كل منهم ، فقد روى البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة

(1) انظر من روائع ص 56 ط ثانية .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى سَلَّم فَلَبَّبْتُهُ[1] بِردَائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ، قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : كذبت ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه »[2] .

والذي يرشد إليه هذا الحديث ونحوه أن الأحرف السبعة وحي من الله وأن الاباحة في القراءة بها توقيفية ، وأن القارىء

---

(1) أي جمع رداءه حول نحره في شدة كما يفعل الخصمان ، وأساوره بمعنى يثب عليه وينال منه .

(2) صحيح البخاري جـ 6 ص 227.

يجب عليه أن يلتزم بما أبيح له فحسب ، فلا يجوز أن يقرأ كما يهوى ، كما أن هذه الأحرف لا تعني كل ما كان بين اللهجات من اختلافات في النطق والأداء ، وإنما يقصد بها أهم هذه الاختلافات ، وما كان يمثل عسرا وعنتا في القراءة ، ولذا لم تكن سبعة أحرف في كل آية ، ولكنها لهجات وجدت جملة في القرآن .

ومما يرشد إليه الحديث أيضا أن المسلمين في تلاوتهم لكتاب الله كانوا يقفون عندما حفظوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا لا يعرفون هوادة في مقاومة كل مخالف لما حفظوا ، وأنهم اذا اختلفوا كان مرجعهم الذي يفصل بينهم فيما اختلفوا فيه هو معلمهم ومن بعثه ربه رحمة بهم ، وهذا يعني أنه لا مجال لأحد أن يدخل في تلك الأحرف ما ليس منها .

بين الرخصة والعزيمة :

وتلك الإباحة في القراءة بالأحرف السبعة هل كانت مطلقة أو أنها مقيدة ، طوعا لحالة المسلمين اللغوية في فجر

الدعوة ، وبعبارة أخرى ، هل كانت الاباحة رخصة أو عزيمة [1] ؟

إن من المجمع عليه أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش ، وكانت القاسم المشترك بين اللهجات العربية من حيث الفصاحة والبيان ، لقد كانت أغزر لغاة العرب مادة وأرقها أسلوبا ، وأغناها ثروة ، وأقدرها على التعبير الجميل الدقيق الأنيق في أفانين القول المختلفة ، فاصطنعت وحدها في الكتابة والتأليف والشعر والخطابة ، حتى كان الشاعر من غير قريش يتحاشى خصائص لهجته ، ويتجنب صفاتها الخاصة في بناء الكلمة وتركيب الجملة والنطق بالأحرف ، ليتحدث إلى الناس بلغة الفوها ، وتواضعوا عليها بعد أن أسهمت عوامل كثيرة في صقلها وتهذيبها [2] .

وما دامت لغة قريش تمثل ذروة البيان العربي في عصر نزول القرآن ، ومن ثم نزل بها لسانا عربيا غير ذي عوج فإن

(1) العزيمة : ما شرعه الله من الأحكام العامة ، أي التي تجب على جميع المكلفين مثل وجوب الصلاة والزكاة ، والعزيمة ما شرعه الله تعالى من الاحكام بناء على أعذار العباد ، بقصد التخفيف والتيسير عليهم في حالات خاصة ، وإن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه .

(2) انظر مباحث في علوم القرآن ص 114.

إباحة القراءة بغير حرف قريش تعد ضرورة اقتضتها الظروف ، ودعت إليها حاجة المسلمين ، فهي لذلك رخصة وليست بعزيمة ، وفي هذا يروي الإمام القرطبي عن الامام الطحاوي : إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ؛ لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة فَوُسِّع لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقا ، فكانوا كذلك حتى كثر فيهم من يكتب ، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدروا بذلك على تحفظ الفاظه ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها [1] .

قال ابن عبد البر : فبان بذلك أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص ؛ لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة ، وعادوا يقرأون القرآن على حرف واحد [2] .

واختلف العلماء حول انتهاء هذه الرخصة وسقوط

---

(1) تفسير القرطبي جـ 1 ص 42.
(2) المصدر السابق .

العمل بها فمنهم من يذهب إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي منع القراءة بما يخالف حرف قريش ، ومنهم من يرى أن هذا المنع كان في عهد عثمان وبتوجيهه [1] .

لماذا دَوَّن عثمان القرآن ؟ .

سـواء صح ما ذهب اليه بعض العلماء من أن هذه الرخصة سقط العمل بها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأمره ، أو أنها زالت في عهد عثمان وبتوجيهه فإن المسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كتابة القرآن في زمن عثمان لم يكن بأيديهم مصحف إمام ، وما دون في عهد الصديق لم يكن مرجعا للقراءة ، وإنما لحماية النص المقدس من التحريف ، أو ضياع شيء منه ، وفضلا عن هذا كثرت الفتوحات في العقد الذي تلا وفاة الصديق ، ودخل في الاسلام أمم مختلفة اللغات والثقافات والأعراف ، كذلك تفرق الصحابة في الأمصار التي فتحها المسلمون أو مصروها ، وبخاصة بعد وفاة الفاروق رضي الله عنه ، ولم يكن هؤلاء الصحابة جميعا من قبيلة قريش وكان لبعضهم لهجته أو لغته في قراءة القرآن ، وكان كل منهم يُقرىء أهل كل اقليم نزل به بلغته ، أو بما يعرف من الحروف التي نزل عليها القرآن ،

---

(1) من روائع القرآن ص 73.

لكل هذا وغيره ازداد الخلاف بين المسلمين حول القراءة بالأحرف السبعة .

ولم يكن الأمر مقصورا على المناطق النائية عن مهبط الوحي ومقر الخلافة ، فقد شمل البلاد الاسلامية كلها ، وإن كان الخلاف في تلك المناطق أشد حدة . وفزع من هذا الخلاف أمير المؤمنين عثمان بن عفان وبعض المسلمين ، ورأوا فيه إرهاصا بخطر يهدد الأمة وكتابها المبين .

وفي هذا أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق ابي قلابة أنه قال : لما كانت خلافة عثمان ، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كفر بعضهم بعضا ، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال : أنتم عندي تختلفون ، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافا[1] .

وروى البخاري بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح ارمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف

(1) مناهل العرفان جـ 1 ص 249.

اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي الينا بالصحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ـ رضي الله عنهم ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القريشيين الثلاثة (زيد مدني والثلاثة الآخرون مكيون) : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رَدَّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

ويستدل مما رواه الامام البخارى على أن عثمان قام بجمع القرآن ؛ ليقضي على تلك الفتنة التي كادت تمزق الأمة ، وليجمع المسلمين على مصحف واحد يكون للناس إماما ، وأن اللجنة التي قامت بهذا الجمع التزمت في كتابة هذا المصحف لسان قريش ؛ لأن القرآن نزل بها ، وأن مصحف أبي بكر كان الأصل الذي اعتمدت عليه اللجنة في نسخ المصاحف ، وما كتب في عهد الصديق كان مطابقا تمام المطابقة للنص المنزل ، وفقا للعرضة الأخيرة التي شهدها زيد بن ثابت ، ومن هنا قطع كافة العلماء والباحثين بأن ما كتب في عهد عثمان ووزع في بعض الأقطار كان الصورة المحققة

الدقيقة للقرآن الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي كان يتلى به [1] .

وكما كان مصحف أبي بكر رضي الله عنه غير معجم ولا مشكل وخلا من أسماء السور والفواصل ، وما ليس بقرآن كالشروح والتفاسير كانت المصاحف التي كتبت في عهد عثمان كذلك ، والفرق بين جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما أن أبا بكر كان يقصد المحافظة على الكتاب العزيز من أن يضيع منه شيء ، بسبب موت القراء ، على حين أراد عثمان منع الإختلاف الذي انتشر في عهده ، فحمل المسلمين على حرف واحد ، أو قراءة تمنع من التفرق والشقاق ، فالأمة واحدة ، والخلاف حول كتابها خلاف في أصل وحدتها ، ومصدر قوتها[2] ، فعثمان رضي الله عنه بما قام به قد سد باب الاختلاف والفرقة ، وجمع الأمة على مصحف واحد ، توارثه المسلمون جيلا بعد جيل دون منازعة أو معارضة ، وأثنى على ما فعله كبار الصحابة ، فقد روى القرطبي عن عمير بن سعيد قال علي رضي الله عنه : « لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في

---

(1) من روائع القرآن ص 57.

(2) دائرة معارف الشعب حـ 1 ص 22.

المصاحف مثل الذي فعل عثمان » [1] .

قال صاحب البرهان : ولم يحتج الصحابة في أيام أبي بكر وعمر إلى جمعه على وجه ما جمعه عثمان ؛ لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان . ولقد وفق لأمر عظيم ، ورفع الاختلاف ، وجمع الكلمة وأراح الأمة [2] .

وكان الخط الذي كتب به القرآن في عهد عثمان ، هو الخط الكوفي أو الحيري المتولد عن الخط المصري القديم [3] في حلقات من التطور من الخط الفينيقي والخط الآرامي وغيرهما ، ولم يكن في حروف هذا الخط نقط تميز ما يتشابه به من أشكال حروفه ، كما لم تعرف الكتابة العربية في عصر ما قبل الاسلام وعهد الرسول والخلفاء الراشدين الشكل الضابط ، وظلت المصاحف زمنا غير منقوطة ولا مشكولة [4] . .

والتزم المسلمون ـ بوجه عام ـ برسم القرآن الذي كتب

---

(1) تفسير القرطبي حـ 1 ص 52.

(2) البرهان في علوم القرآن حـ 1 ص 239.

(3) يذهب بعض الباحثين إلى ان الخط المصري خط تصويري يستعمل الصور للدلالة على مقاطع لا على حروف ، والأظهر أن الخط العربي متولد عن الكتابة النبطية المتولدة عن الجبري ، وهذا عن النبطي والثمودي (انظر مجلة منار الاسلام عدد 1 لمحرم سنة 1400 هـ) .

(4) دائرة معارف الشعب حـ 1 ص 25.

به في عهد عثمان ، وهذا الرسم كان موافقا لقواعد الاملاء والكتابة في ذلك العهد ، فلم يكن مخالفا لما هو متبع ومتعارف عليه في رسم الكلمات ، ولكن الذي نفر منه المسلمون هو اخضاع رسم القرآن للتطوير والتعديل الذي بدأ يطرأ مع الأيام حتى لا يكون الكتاب العزيز عرضة لتغيير رسمه ؛ طوعا لتغيير طرق الكتابة ، وربما تمخض هذا عن تحريف أو تبديل لبعض كلمات القرآن الكريم .

على أن الرسم العثماني ـ أي الرسم الذي كان على عهد عثمان رضي الله عنه وهو الذي كتب به القرآن ـ وإن كان يختلف في بعض الأشياء عما نكتب به اليوم ليس بدعا من الرسم ، فلا تكاد تخلو لغة من اللغات الحية في العصر الحاضر من حروف تكتب ولا تلفظ ، أو من حروف تكتب على وجه وتلفظ في بعض الكلمات على وجه آخر[1] . . . الخ ، وهذا يعني أن محافظة المسلمين على الرسم العثماني ليست محافظة على صورة عتيقة في الكتابة لا تعرف الضوابط أو القواعد ، وتخالف كل ما هو مألوف أو معروف في أشكال الرسم في مختلف اللغات قديما وحديثا ، فضلا عن القداسة التي يجب أن يظل القرآن

---

(1) دراسات قرآنية للدكتور عدنان زرزور ص 109.

محاطاً بها ؛ حماية له من كل أسباب التغيير والتبديل ، ومن ثم كانت دعوى الذين ينادون بكتابة القرآن بالرسم الحديث لا مسوغ لها ، ولا حاجة إليها ، بل قد تكون ذريعة لخطر يلحق بالقرآن من جراء عدم استقرار رسم الكتابة ، وتعرضه للتطوير والتغيير ، وأيضا لعدم الاجماع بين البلاد العربية على نمط واحد في الكتابة فبين المشارقة والمغاربة اختلاف واضح في رسم بعض الكلمات .

وأما عدد المصاحف التي استنسخها عثمان فقد اختلف في عددها فيروى أنها كانت سبعة ، كما يروى أنها كانت خمسة ، أو اربعة ، وقد احتفظ لنفسه بواحد منها ، ووزع سائرها في الأمصار [1] .

ولكن أيًّا ماتكن عدة هذه المصاحف على وجه اليقين فإنها جميعا تماثلت في اشتمالها على القرآن كله بالترتيب الذي نقرأ به اليوم وتجردت مما ليس بقرآن كالشروح والتفاسير ، وكانت غير معجمة وخالية من الفواصل وأسماء السور ، اقتداء بأبي بكر فإن صحفه كانت مجردة من كل ذلك [2] .

---

(1) انظر البرهان جـ 1 ص 240.

(2) انظر مباحث في علوم القرآن ص 84.

وكان لا مفر من التخلص مما لدى بعض الصحابة من قرآن مكتوب ، حسما للنزاع فأمر عثمان بتحريق كل الصحف والمصاحف الخاصة ، ولم يقدم على هذا إلا بعد مشاورة وتأييد من الصحابة الكرام ، فهذا سويد بن غفلة يقول : قال علي : لا تقولوا في عثمان إلا خيرا ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا[1] .

واستجاب المسلمون جميعا لأمر عثمان ، واقبلوا يعكفون على استنساخ المصاحف من هذه الأصول الوثيقة المعتمدة ، وهي المصاحف التي وزعها عثمان في الأمصار إلى جانب دراستها وتلقيها مشافهة من كبار القراء الذين كان يبعثهم عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار ليتلقى الناس عنهم كتاب الله عز وجل .

ولم يحرق عثمان الصحف التي أخذها من السيدة حفصة رضي الله عنها ، بل ردها إليها ؛ لأنها كانت سليمة من الخطأ أو الاضافة التفسيرية ، وكان الصحابة قد تحروا غاية التحري في كتابتها عند جمع القرآن في عهد الصديق رضي الله عنه ، ويروى أن مروان بن الحكم (65 هـ) حاول أخذ

(1) الاتقان جـ 1 ص 170 .

الصحف من حفصة لحرقها فأبت ، فلما توفيت أخذها وأحرقها وقال مدافعا عن رأيه : إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الإمام ، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذا القرآن مرتاب [1].

وإذا كان عثمان رضي الله عنه قد جمع المسلمين على مصحف واحد فإن هذا لم يلغ الخلاف كلية في القراءة ، بل ذهب بعض الباحثين إلى أن عثمان بما قام به لم يقض على كل الوان الاختلاف في القراءة وأنه كان يستهدف بعمله أمرين :

أولهما : إن في إضفاء صفة الشرعية على القراءات المختلفة التي كانت تدخل في إطار النص المدون ، ولها أصل نبوي مجمع عليه وحمايتها ، فيه منع لوقوع أي شجار بين المسلمين بشأنها ؛ لأن عثمان كان يعتبر التماري في القرآن نوعاً من الكفر .

ثانيهما : استبعاد ما لا يتطابق تطابقا مطلقا مع النص الأصلي ؛ وقاية للمسلمين من الوقوع في انشقاق خطير فيما بينهم ، وحماية للنص ذاته من أي تحريف ، نتيجة ادخال بعض العبارات المختلف عليها نوعا ما ، أو أي شروح يكون

(1) مباحث في علوم القرآن ص 83.

الأفراد قد أضافوها إلى مصاحفهم بحسن نية [1] .

ويفهم من هذا أن ما عرف بعد عهد عثمان بالقراءات ليس هو الأحرف السبعة كلها التي أنزل بها القرآن ، وإنما هي جزء منها ، وسوغ القراءة بها أنها موافقة لخط عثمان الذي أجمع الصحابة فمن بعدهم عليه .

إن القرآن الذي دون في عهد عثمان كان على حرف قريش ، وكان غير معجم ولا مشكول ، ومن ثم بقيت الأوجه الخاضعة لذلك الحرف معتمدة في القراءة والتعبد بها طالما ثبتت روايتها عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر [2] .

إن خلو المصاحف العثمانية من الاعجام والشكل جعل رسم بعض الألفاظ القرآنية صالحا لأن يقرأ بأكثر من وجه كقوله تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ فقد قرىء أيضا : ﴿ فتثبتوا ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ فتلقى آدمُ من ربه كلمات ﴾ فقد قرىء أيضا : ﴿ فتلقى آدمَ من ربه كلمات ﴾ وإنما صلح الرسم للوجهين في الآيتين المذكورتين لورود دليل قاطع على صحة القراءة بهما ، لأن رسول الله قرأ بهما ، أو لأن أحدا من

(1) مدخل إلى القرآن الكريم ص 43.
(2) من روائع القرآن ص 74.

الصحابة قرأ بهما بحضوره فأقره ولم يعترض عليه .

وورود مثل هذا الدليل على تواتر قراءة ما هو الـذي يعين صلاحية الرسم لوجه دون آخر ، فإن وجد دليل آحـادي لم يبلغ درجة التواتـر على قراءة ما لـم يؤخـذ به، واعتبـر شاذاً ؛ لمخالفته أخبار الثقات ، ولو صح الرسم للقراءة به ، كقولـه تعـالى : ﴿ إنمـا يخشى الله من عبـاده العلماءُ ﴾ ففـي القـراءة الآحادية الشاذة : ﴿ إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ ﴾[1] .

إن القراءات القرآنية المعتبرة هي وجـوه في قراءة حرف قريش وأن هذه الوجوه يقبلهـا هذا الحـرف ، وثبتـت أيضـا بطريق التواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويكون ما بطلت القراءة به من مجموع الأحرف السبعة إنما هو ما خالف حرف قريش ، ولـم يقبله التأويل بحال[2] .

ولكن الذي تجب الإشارة اليه في هذا الصدد أن ما يفعله بعض القراء الآن من تلاوة للآية بأكثر من وجـه دون مســوغ لذلك ـ اللهم إلا اثبات المعرفة بالقراءات أو القدرة على التلاوة وارضاء المستمعين والحصول على ثنائهم واستحسانهـم ـ غـير

---

(1) مباحث في علوم القرآن ص 85.

(2) انظر من روائع القرآن ص 74.

جائز ولا مقبول ، فما كانت الأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن إلا تيسيرا ورحمة ، وما كانت القراءات القرآنية إلا من هذا الباب أيضا ؛ لأنه لا معنى للقراءة بأكثر من وجه دون ضرورة ملجئة في النطق والأداء وفي حدود الضوابط التي تواضع عليها علماء القراءات والتجويد ، فما يفعله القراء اليوم لا ضرورة له ، وربما فسر على أنه لون من التلهي بآيات الله ، ونسيان الغاية المقدسة من تلاوة القرآن الكريم ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾[1] .

---

(1) الآية 21 في سورة الحشر .

الفصل الثالث

« القرآن بعد عثمان »[1]

كان جمع القرآن في عهد عثمان هو آخر جمع لكتاب الله ، وهو في الواقع امتداد لما كان من تدوين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قام به أبو بكر عقب حروب الردة .

وكان المسلمون بعد ذلك يستنسخون[2] من المصاحف العثمانية التي لا يمكن الجزم بأنها أو بعضها ما زال باقيا حتى الآن[2] ، وهذه المصاحف كما سبقت الإشارة إلى هذا في الفصل السابق لم تكن معجمة ولا مشكولة ، وظل المسلمون يقرأون كتاب الله مهتدين إلى النطق السليم عن طريق التلقي والمشافهة ، والسليقة العربية الأصيلة ، ومكثوا على هذا فترة يذكر بعض الروايات التاريخية أنها أربعون عاما أو نحوها ،

---

(1) تذكر الروايات أنه في معركة صفين رفع أتباع معاوية على أسنة الرماح خمسمائة مصحف ، وهذا يدل على أن المسلمين قد استنسخوا من المصاحف العثمانية في نحو عشر سنوات مئات النسخ .

(2) هناك مصحف في متحف طوب قالى سراي باستانبول ، ومصحف في خزانة مسجد الحسين بالقاهرة ، ومصحف بالخزانة الملكية بالمغرب ، وصفحات أو اكثر في بعض المكتبات الاوروبية والمتاحف ، وكل هذا ينسب إلى عثمان ، ولكن الجزم بأنها مصاحف عثمان رضي الله عنه يحتاج إلى دراسة معملية وفنية .

ثم كان اختلاط العرب بالعجم وما نجم عنه من ضعف السليقة اللغوية وطروء اللحن .

وخاف بعض المسلمين على كتاب الله من الخطأ في قراءته أو التحريف فيه إذا ظلت المصاحف غير معجمة ومشكولة ، فكانت محاولات العلماء لاحداث أشكال معينة تساعد على القراءة الصحيحة ، وتدرجت هذه المحاولات في أطوار وأجيال حتى بلغت الغاية من الدقة والاتقان في نهاية القرن الثالث الهجري [1] .

ويذكر أبو الأسود الدؤلي (ت 69 هـ) على رأس الذين قاموا بهذه المحاولات ، فهو لدى جمهور المؤرخين لكتاب الله أول من نقط القرآن ؛ أي وضع على حروفه نقطا تقوم مقام الحركات كالكسرة والضمة والفتحة ، إلا أنه ميز الحروف المتشابهة بالنقط ، ويروى أن أبا الاسود حين انتهى به اجتهاده في نقط القرآن عمد إلى كاتب وأعطاه المصحف ومدادا ملونا ، لونه غير لون خط المصحف ، وقال له : إن رأيتني أفتح فمي بالحرف فضع دائرة صغيرة باللون فوق الحرف ، وإن كسرت فمي فضع الدائرة أسفل الحرف ، وإن ضممت فمي فضع

(1) انظر مباحث في علوم القرآن ص 90.

الدائرة بين يدي الحرف[1] . أما السكون فقد جعل علامته دائرتين فوق الحرف .

وكما يعزى لأبي الأسود بأنه أول من نقط القرآن ؛ استجابة لرغبة علي بن أبي طالب أو غيره من حكام بني أمية [2] ، فإنه يعزى إليه أيضا أنه أول من سبق إلى وضع مسائل في العربية ، أو بعض أصول النحو وقواعده ، وكان الباعث على ذلك ما أفزعه من سماع اللحن في تلاوة القرآن ، وهذا يومىء إلى حقيقة علمية وهي أن كل التراث الذي تفخر به المكتبة الاسلامية كان ثمرة طبيعية لجهود رائعة بذلت في سبيل خدمة الكتاب العزيز ، وتيسير فهمه ومعرفة أحكامه .

وما دام هذا التراث كله نشأ من أجل خدمة القرآن فإن حكمنا عليه من حيث صلاحيته للانتفاع به في حاضرنا يجب أن يكون محكوما بتعاليم القرآن وقيمه الخالدة ، فما كان منه معينا على الانتفاع بهدي القرآن والوقوف على آدابه ومفاهيمه ، ولا يمثل ثقافة خاصة أو مرحلة زمنية معينة فإنه تراث مجيد خليق بالرعاية والعناية ، وما لم يكن كذلك فهو تراث يعكس تاريخا

(1) انظر مجلة منار الاسلام المحرم سنة 1400 هـ ص 57.
(2) انظر مباحث في علوم القرآن ص 92.

نحتفظ به ونحميه من عوامل الدثور ، وإن كنا لا نستهديه في علاج ما نواجه من مشكلات .

وهنـــاك عالمان جليلان كانـــا تلميذين لأبـــي الأســـود الـدؤلي ، هما : يحيى بن يعمر (ت 129 هـ) ونصر بن عاصـم الليثي (ت 89 هـ) سلكا منهج أستاذهما في اعجام القرآن حتى إنه ينسب لكليهما أنه أول من نقط كتـاب الله ، ولكن الراجح أن أبا الأسود كان الرائد في هذا المجال ، وأن من جاء بعده نسج على منواله ، وأضاف جديدا دفع بعجلـة ضبط النص المقدس خطوة إلى الامـام ، فـيروى أن نصر بن عاصم هو الذي مـيّـز المتشابه من الحروف بالنقط ، فأعجـم بعضها، واهمل البعض الآخر، قام بهذا بعد أن أمره الحجاج ابن يوسف الثقفي بوضع علامات تميزالحروف المتشابهة، فقد كثر التصحيف وانتشر بالعراق ، وخـاف الحجـاج من شيوع هذه الظاهرة على كتاب الله ، ولذا يكون للحجاج ـ الذي كان في شبابـه معلـم صبيان ـ دوره الـذي لا ينـكر في توجيه هذا العمل العظيم والاشراف عليه .

وتتابعـت جهـود العلماء ومحاولاتهـم في ضبـط النص القرآني وتحسين رسمه ، وتجـاوزت هذه المحـاولات الشـكل

والاعجام إلى تقسيم القرآن أعشارا وأخماسا وأجزاء وأحزابا ، وكتابة عناوين السور والرموز الفاصلة بين الآيات ، وكانت تلك المحاولات تلقى أحيانا من بعض المسلمين التوجس والمعارضة ؛ خوفا على القرآن من أن يضاف إليه ما ليس منه ، بيد أن هذا التوجس لم يكن يؤثر على جهود العلماء ونشاطهم واقبالهم في حماس على عملهم المجيد ، بل إن المعارضين كانوا بعد حين يكفون عن المعارضة ، ويقتنعون بسلامة هذا العمل ، وأثره في حفظ القرآن المجيد .

وما كاد القرن الثالث ينتهي حتى كانت جهود العلماء في ضبط القرآن قد بلغت ذروتها ، أو حققت غايتها ، وأصبح رسم القرآن في صورة يمنع من اللحن أو التحريف فيه ، وأفرد عدد من العلماء هذا الرسم بالتأليف ووضع القواعد والضوابط له .

وتبارى الخطاطون في تجويد هذا الرسم ، فظلوا يكتبون المصاحف بالخط الكوفي الذي كتب به القرآن في عهد عثمان ، حتى أواخر القرن الرابع الهجري ، ثم حل محله خط النسخ الجميل في أوائل القرن الخامس ، وفيه جميع النقط والحركات التي ما نزال نستخدمها في الكتابة إلى يومنا هذا[1] .

---

(1) مباحث في علوم القرآن ص 99.

وكان هؤلاء الخطاطـون أحيانـا يتعاونـون في كتابـة المصـحف الواحـد ، حيث يشتـرك في اخراجـه مجموعـة من الفنانين يعملون لأكثر من عام في زخرفته وتذهيبه وكتابة آياته بالخط العربي بأشكاله المختلفة ، سواء الخط الكوفي بانواعه ، أو النسخ أو النسخ المملوكي المعروف بالخط الريحاني أو الخط الثلـث أو الرقعـة أو الديوانـي . . . ثم تجليده تجليداً فاخـراً مستعملين في ذلك الأدوات البسيطة والألوان الطبيعية [1] .

والجـدير بالتنـويه به أن احـد هؤلاء الخطاطـين كان لا يمسك قلمه إلا بعد أن يتطهر متوضئاً ويتعطر ، ويقدم بين يدي مجلسه للكتابة ركعات لله تعالى يسأل معها التوفيق والقدرة من الحق جل جلاله ، ثم يجلس إلى قمطره ، وقد عطر دواته بماء الورد أو المسك . وربما استعمل بعضهم قصبات أقلامهم من أعـواد شجـر الأراك ـ شجـر السـواك ـ المعطـر أو اعـواد الصندل ، واستفتحوا بقراءة سور بعينها قبل أن يخط قلمهـم كاتبا مصحفا أو واصلا ما بدأ من كتابة لمصحف .

ولقـد كان هؤلاء الكتـاب حفاظـا مجـودين ، يعرفـون مواضـع الـوقف والوصـل ، فيضعـون علامتهـا على رؤوس

(1) انظر مجلة الهلال عدد ديسمبر سنة 1970 ص 132.

الكلمات ، ويعلمون مواضع الغنة والمد والاظهار والادغام فيضعون لذلك من العلامات ما ينبه القارىء إلى مواقعها ، ثم يضعون فواصل الأخماس والاعشار والارباع والأحزاب والأجزاء [1] بين الآيات ، وعلاماتها على هوامش الصفحات ، وربما عادوا على هذه العلامات الأخيرة بالتذهيب ، إن كانوا هم أنفسهم المزخرفون ، أو تركوها بعدهم لمن تخصص بذلك ، وهؤلاء أيضا ما كان أحدهم يمس صفحات المكتوب من كلام الله إلا متطهرا متطيبا ، فقد كانوا ـ رحمهم الله ـ يأخذون قوله تعالى : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ مأخذ الفريضة دون نظر إلى ما قاله الفقهاء في ذلك بين الوجوب والندب والاستحسان .

وفضلا عن كل هذا ما كان هؤلاء الكتاب يأخذون هذا العمل مأخذ الارتزاق بما تخط أقلامهم بقدر ما كانوا يقصدون منه التعبد بنشر كتاب الله الكريم وخدمة آياته بتسجيلها محفوظة

---

(1) الأخماس ، هي وضع علامة بعد كل خمس آيات ، والاعشار وضع علامة بعد كل عشر آيات ، أما الارباع والأحزاب والاجزاء فإنهم قسموا القرآن ثلاثين جزءا وكل جزء مؤلف من حزبين ، وكل حزب أربعة أرباع ، فالقرآن ثلاثون جزءا وستون حزبا ، ومائتان وأربعون ربعا ، ويكاد كل ربع يستغرق تقريبا نحو صفحتين من القرآن بعد طباعته .

على القراطيس بعد حفظها على صفحات الصدور [1] .

ومكتبات ومتاحف العالم كلها تقريبا تحتفظ بالعديد من المصاحف النادرة التي كتبت في مختلف العصور ، والتي تشهد للمسلمين بحرصهم البالغ على كتابة القرآن على نحو لم يعرف لكتاب سواه ، لقد جمعوا في هذه الكتابة بين الدقة والفن ، وكانوا يرون عملهم طاعة وعبادة ، فلا يقومون به إلا وهم متوضئون ، لذلك خلفوا لنا هذا القدر الهائل من المصاحف التي تنوعت أحجامها وخطوطها وزخارفها ، وكانت جميعها امتدادا لما دون في عهد عثمان من حيث الدقة والاتقان ، فلا نقص أو تحريف .

ولما بدأ عصر الطباعةفي اوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي ظهر القرآن مطبوعا للمرة الأولى في مدينة البندقية في حدود سنة 1530 ولكن الكنيسة أمرت باعدامه فور ظهوره ، فقد راعها أن يصبح القرآن متداولا بين الناس ، وهو بمبادئه التي ترفض الوساطة بين العبد وخالقه ، وتؤكد وحدانية الله وبشرية المسيح وتدعو إلى المساواة بين البشر في الحقوق

---

(1) انظر مجلة منار الاسلام جمادى الأولى سنة 1400 هـ ص 52.

والواجبات، والايمـان بمحمـد خاتمـا للأنبياء والمرسلـين، وأن الاسلام الذي بعث به هذا الرسول دعوة الله إلى الناس كافة ؛ هذا القرآن بتلك المبادىء وغيرها يزعج الكنيسة كل الازعاج ؛ لأنه يقضي على سلطان رجالها ونفوذهم ، ويرشد النـاس إلى صراط الله المستقيم ودينه الحنيف ، ولذا اسرعت الكنيسة إلى اعدام تلك الطبعة الأولى للقرآن ، ومنعت طبعه بعد ذلك ، ولكن بعد نحو مائة وخمسين عاما من الطبعة الأولى طبع القرآن في مدينة هانبورغ سنـة 1694 هـ ثم في مدينـة بادوا سنـة 1698 ، ولـم يكن لأي واحدة من هذه الطبعات الثلاث أثر يذكر في العالم الاسلامي .

وظهـرت أول طبعـة اسـلاميـة خـالصـة للقـرآن في سانت بترسبورغ بروسيا سنة 1787 ، ثم طبع بإيران طبعتين حجريتين في منتصف القرن الثالـث عشر الهجـري تقريبـاً ، وبانتشار الطباعة في العالم الاسلامي تعددت طبعات القرآن ، وإن كانـت الطبعـة التـي أشرف الأزهـر على اصدارهـا سنـة 1342 هـ قد لقيت قبولا في العالم الاسلامي [1] .

وفي ختام هذا الفصل لا بد من الإشـارة إلى ما قامـت

---

(1) انظر مباحث في علوم القرآن ص 99 — 100.

وتقوم به بعض الجهات المعادية للإسلام ، وبخاصة الصهيونية العالمية من طبع القرآن طبعات أنيقة فاخرة ، ولكنها محرفة بالحذف والاضافة ، وربما أدرج بين سطورها ترجمات فاسدة زادت من بشاعة التحريف ؛ لأن الذين قاموا بها أعداء حقيقيون للاسلام والمسلمين ، فجاءت ترجماتهم تحريفا للكلم عن مواضعه ، وتشويها لمبادىء الاسلام وتعاليمه . ولقد كان من فضل الله وتعهده بحفظ كتابه أنه لم يترك هؤلاء المضللين دون أن يفضحهم الحفاظ والقراء ، وهم بتدبير الله الحكيم منتشرون في بلاد الله جميعا ، ولكن الأمر مع هذا يحتاج الى عمل اسلامي منظم لحراسة كتاب الله من هذه الحرب الصليبية الصهيونية الباغية ، على المسلمين أن يؤسسوا هيئة عالمية تتولى تنظيم كل ما يتصل بكتاب الله من دراسة وعلوم ، تخرج الحافظين والقراء ، وتراجع ما يطبع من الكتاب الكريم ، وما يكتب حوله من دراسات ومصنفات وترجمات ، هيئة على مستوى الأمة الاسلامية ، ومسئوليتها أمام الأمة ، بعيدا عن أهواء الساسة والسياسة ، حاملة لواء الحق ، وما الحق إلا كتاب الله من تمسك به هُدي إلى السعادة في الدين ، ومن أعرض عنه من جبار قصمه الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون ،

ويطمئنـون على كتـاب الله من عبـث العابثـين ، وضـلال الحاقدين ، ويحمدون الله الذي بنعمته تتم الصالحات [1] .

(1) انظر مجلة منار الاسلام جمادى الأولى سنة 1400 هـ ص 66.

«البـــاب الثـــاني»

«علـــوم القـــرآن»

تمهيد

نَشأة العلوم القرآنية وتطوّرها

تناول العلماء قديما وحديثا هذا المركب الاضافي « علوم القرآن » بالبحث والدرس ، فعرفوا طرفيه ، وفسروا وجه الإضافة بينهما وبينوا المراد بهذا المركب بعد نقله ، وتسمية ما كتب حول القرآن به .

ولا جدوى كبيرة ـ فيما أرى ـ لعرض كل ما جاء عن هذا المركب الاضافي ، فبعضه مباحث منطقية كلامية تتباين حدودها باختلاف الاصطلاحات العلمية ، ومن ثم يمكن الاجتزاء بالحديث في ايجاز عن المفهوم العام لهذا المركب ودلالته بعد أن أصبح اصطلاحا ، وعن تاريخ نشأته وتطور التأليف فيه .

أما المفهوم العام « لعلوم القرآن » فإنه يشمل كل العلوم التي جاءت فيه تصريحا أو تلميحا .

ولا مناص من التذكير هنا بأن القرآن كتاب هداية للتي هي أقوم ، وليس كتاب علم في الفلك أو الطب أو الزراعة

ونحو هذا من العلوم بالمعنى المعروف لها ، وإنما هو كتاب علم من حيث دعوته إليه ، وارشاده إلى كلياته وأصوله ، وربط هذا بعقيدة المسلم حتى يصبح العلم هاديا للايمان أو مُـدَعِّـما له ، ولا يكون وسيلة كفران وطغيان وامتهان لكرامة الانسان .

إن القرآن الكريم دعا إلى التفكير ، بل جعله عبادة ، وأنزله منزلة الفريضة [1] ، ولـذا خلا من كل ما يعـوق حركة العقل في سيره وتقدمه ، ونعى على هؤلاء الذين لـم يفكروا ولـم يتدبروا ، واتبعوا في تقليد سواهم ، ذلك السلـوك الـذي لا يخلق بهم ، ومن وصفهم بأنهم كالأنعام أو أضل سبيلا .

ودعوة القرآن للتفكير لا تنحصر في مجال دون مجـال في هذا العالم المنظور ، وأمره للعقل بالتدبـر واكتسـاب العلـم والمعرفة عن يقين واقتناع يشمل كل الميادين التي يكون البحث فيها سبيلا للإيمان وزيادته ، وسبيلا أيضا لخير الانسان وكفالة كرامته ، ومن هنا تصبح كل العلوم النافعة علومـا قرآنية من حيث دعوته إليها وأمره بها ، ومـن حيث أنهـا تدور في فلك رسالته ومبادئه .

وما تقدم المسلمون في الماضي وسادوا وقادوا ، وفتحـوا

---

(1) انظر التفكير فريضة اسلامية للاستاذ عباس محمود العقاد .

الشرق والغرب إلا أنهم فهموا حق الفهم دعوة القرآن للعلم ، فأقبلوا عليه في ميادينه المختلفة اقبالا منقطع النظير ، ولذا كانت لهم آثارهم المجيدة ، وابتكاراتهم الفريدة ، وريادتهم الرائعة [1] ، يشهد لذلك مكتبات العالم الخاصة بالمخطوطات والمطبوعات الاسلامية .

والمسلمون بما قدموا من تراث علمي ضخم أيقظوا العالم من سبات الجهالة ، وأناروا له طريق العلم والحضارة ، فليس غريبا إذن أن يقال : إنه لولا القرآن الكريم ما تقدمت البشرية ولا بلغت إلى ما بلغت إليه اليوم من الحضارة والمدنية [2] .

والقرآن مع دعوته للعلم وأمره بالتفكير اشتمل على إشارات كثيرة لقضايا علمية لم يكن الانسان وقت نزول القرآن يستطيع أن يدرك كنهها ؛ لأنه ما كان يملك أسباب المعرفة العلمية التي أتيحت له في العصر الحديث ، وذلك مثل مراحل تطور الجنين في بطن أمه ، والسحاب الركامي الذي يخرج الودق من خلاله، وأنه سبحانه جعل الشمس ضياء على حين

---

(1) انظر أثر العرب في الحضارةالاوروبيةللاستاذ عباس محمود العقاد .

(2) انظر مطالعات للاستاذ عباس محمود العقاد .

جعل القمر نورا ، إلى غير هذا من الاشارات المبثوثة في تضاعيف القرآن .

وهذه القضايا فضلا عن كونها آية من آيات الاعجاز ، وأن القرآن وحي من لدن خبير عليم هي أيضا دعوة إلى العلم وحض عليه ؛ لأنا أمرنا بتدبر آيات هذا القرآن ، ولا سبيل إلى التدبر الصحيح في مثل هذه القضايا إلا بالبحث العلمي ، ومحاولة معرفة الحقيقة ، ومعرفة معجزات الله في كونه ؛ كي لا يرتاب مرتاب في وحدانيته ، وأنه الحق الذي يحيط بكل شيء علماً ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (1) .

يقول الامام الشاطبي : « القرآن محتو من العلوم على ثلاثة أجناس هي المقصود الأول : أحدها معرفة المتوجَّه إليه وهو الله المعبود سبحانه ، والثاني معرفة كيفية التوجه إليه ، والثالث معرفة مآل العبد ليخاف الله به ويرجوه ، وهذه الاجناس داخلة تحت جنس واحد هو المقصود ، عبر عنه بقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ﴾ (2) .

---

(1) الآية 52 في سورة فصلت .

(2) الموافقات جـ 3 ص 225

وقال الامام الزركشي : « وكل علم من العلوم منتزع من القرآن وإلا فليس له برهان »[1] .

فالمفهوم العام لذلك المركب الاضافي « علوم القـرآن » يشمل كل العلوم النظرية والتجريبية ما دامت تستهدي القرآن وتنشد الخير للانسان في عاجلته وآجلته .

والمسلمون طوعا لهذا مطالبون بارتياد كل مجالات العلم والتفوق فيها ، وتقصيرهـم أو اهمالهـم يعـد اهمالا لفريضـة مكتوبة هي مناط عزتهم وقوتهم التي أمر الله باعدادها ؛ ارهابا للباطل وجنوده ، واعلاء لكلمة الحق في دنيا الناس .

أما دلالة هذا المركب بعـد أن أصبـح اصطلاحـا فهـو ينسحب على كل المعارف المتصلة بالقرآن اتصالا مباشرا ، أو هي مباحث تتعلق بالقرآن من حيث تفسيره واعجـازه ومـكيه ومدنيه ومحكمه ومتشابهه ، وناسخه ومنسوخـه وفواتـح سوره وقراءاته ورسمه . فكل هذه المباحث ونحوها مما يتصل بالقرآن اتصالا وثيقا ويُـعين على فهمه فهما صحيحـا شامـلا قد حرر العلماء معانيها وحددوا ضوابطها ، واصلوا قواعدها ، وألفوا فيها الكتب الكثيرة ، وأضحت هذه المباحث علما مستقـلا ،

---

(1) البرهان في علوم القرآن حـ 1 ص 7.

وأضحى ذلك المركب الاضافي « علوم القرآن » مصطلحا خاصا بها [1] .

وهذه المباحث التي أطلق عليها هذا الاصطلاح لم تظهر في حقبة واحدة من الزمن ، وإنما ظهرت متتابعة ، ولذلك لم يطلق هذا الاصطلاح على تلك المباحث كفن مدون ، وعلم مستقل إلا بعد أن كثر البحث فيها ، وهذا يعني أن تحديد تاريخ لظهور هذا الاصطلاح لا يسلم من الأخذ والرد .

إن ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم من آثار في تفسير القرآن الكريم ، وما نقل عن الصحابة والتابعين في هذا أيضا يعد بداية وضع علم التفسير ، وهو عماد العلوم القرآنية كلها ، وما قام به عثمان رضي الله عنه من أمر كتابة القرآن بهذا الرسم الذي يعزى اليه ، وقام به زيد بن ثابت وبعض الصحابة رضي الله عنهم يعد بداية وضع علم الرسم القرآني الذي تطور ونما وتعددت فيه الدراسات والمؤلفات .

وكان لاتساع دائرة التفسير وبخاصة في القرن الثاني ، وما تلاه ، وظهور التفسير بالرأي ، وكثرة الفرق الكلامية أثره في الحديث عن علوم المحكم والمتشابه وأسباب النزول والمكي

---

(1) انظر مناهل العرفان حـ 1 ص 20.

والمدني والقراءات .

كما كان لمناقشات الفقهاء والاصوليين دورها في الكلام عن الناسخ والمنسوخ والخاص والعام ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمفصل . وهكذا ظهرت العلوم القرآنية متتابعة شيئاً فشيئا [1] ؛ طوعا لتطور الحياة العلمية ، واستقلال العلوم وتفرعها وظهور المدارس ، والمذاهب الفقهية والكلامية .

ولم تكن هذه العلوم مدونة في القرن الأول كسائر العلوم الاسلامية ، وجاء تدوينها في القرن الثاني مختلطا مع غيرها من العلوم ، وفي القرن الثالث كتب أبو عبيد القاسم بن سلام (ت : 232 هـ) في الناسخ والمنسوخ ، وعلي بن المديني شيخ البخاري (ت : 234 هـ) في أسباب النزول ، وكثرت بعد ذلك المؤلفات في العلوم القرآنية في صورة دراسات خاصة أو مقدمات ومداخل لبعض كتب التفسير ، وكانت هذه الدراسات تتناول العلوم القرآنية كلها أو تفرد لواحد منها .

ومع أن مصطلح العلوم القرآنية ظهر في القرن الثاني ، وفقا لما تذكره الرواية عن الامام الشافعي في لقائه بالرشيد حين اتهم بالتآمر ـ وهو يعمل في اليمن ـ على الدولة العباسية ، فإن

(1) انظر من روائع القرآن ص 79 — 80.

هذه العلوم كانت تنمـو مع الزمـن ، ويجـد منهـا ما لـم يكن موجودا من قبل .

وفي القرن الرابع كان هذا المصطلـح قد اتخـذ مدلولـه العلمي ، ولعل هذا لكثرة ما كتب في العلوم القرآنية ، وان لـم يصلنا كله، قالوا حدي (ت 427 هـ) يقول في مقدمة كتابه أسباب النزول : « وبعد فإن علوم القرآن غزيرة ، وضروبها جمة كثيرة يقصر عنها القول وان كان بالغا ، ويتقلص عنها ذيله وإن كان سابغاً ، وقد سبقـت لي ـ ولله الحمـد ـ مجموعـات تشتمل على أكثرها ، وتنطوي على غررها »[1] .

والذي يلاحظ على المؤلفات التي درست العلوم القرآنية أنها لم تدع شيئا يتعلق بالقرآن إلا الت به ، وعرضت له ، كما أنها امتازت بالاستيعاب والاستقصاء الـذي لا ينـد منـه شيء غالبا ، فمن كتب مثلا في غريب القرآن أو اعرابه أو عدد آياته وسـوره وكلماتـه وحروفـه حاول أن يستقـرىء كل ما يتصـل بموضوعه في دقة ، تؤكد شدة حرص العلماء على العكوف على كتاب الله يدرسونه دراسة شاملة وافية توضح أحكامـه ولغتـه ورسمه وبيانه ، وأنه وحي الله إلى خاتم أنبيائـه ، وليس كما

(1) أسباب النزول للواحدي ص 4 ت الأستاذ سيد صقر .

زعم المشركون أساطير الأولين ، وادعى المستشرقون والمبشرون أنه تلفيقات من التوراة والانجيل واحاديث الرهبان والأحبار .

ويرى بعض الباحثين أن كتاب « الحاوي في علوم القرآن » لمحمد بن خلف المرزبان (ت : 309 هـ) هو أقدم كتاب درس العلوم القرآنية ، على حين يذهب البعض الآخر إلى أن كتاب البرهان في علوم القرآن لعلي بن ابراهيم بن سعيد الحوفي (ت 430 هـ) هو أول كتاب أتى على هذه العلوم لا على طريقة ضم النظائر والأشباه بعضها إلى بعض وتحت عنوان واحد لنوع واحد ، بل على طريقة النشر والتوزيع ، تبعا لانتشار الالفاظ المتشاكلة في القرآن وتوزعها(1) .

وازدهر التأليف في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع في العلوم القرآنية فألف ابن الجوزي (ت 597 هـ) كتابين هما : « فنون الافنان في علوم القرآن » و« المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن » وألف علم الدين السخاوي (ت 641 هـ) كتابه : جمال القراء ، وألف أبو شامة (ت : 665 هـ) كتابه المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز .

---

(1) انظر مباحث في علوم القرآن ص 121.

وفي القرن الثامن كتب بدر الدين الزركشي (ت 794 هـ) كتابه « البرهان في علوم القرآن » ، وهو من أهم الكتب التي وصلتنا في هذا الفن ، وقد طبع في أربعة أجزاء طبعة محققة تحقيقا علميا .

وطلع القرن التاسع على هذا العلم باليمن والبركة ـ على حد تعبير بعض العلماء المعاصرين ـ ؛ إذ صنف فيه جلال الدين البلقيني (ت 824 هـ) كتابه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » وقد درس فيه خمسين نوعا من علوم القرآن ، كذلك ألف محمد بن سليمان الكافيجي (ت : 879 هـ) كتابا لا يعرف اسمه غير أن السيوطي وصفه بقوله : إنه لم يسبق اليه ، وقد اشتمل على بابين : الأول في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية ، أما الثاني ففي شروط القول في القرآن بالرأي ، وبعدهما خاتمة في آداب العالم والمتعلم .

وألف الإمام جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ) كتابين هما : « التحبير في علوم التفسير » ضمنه ما ذكره البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها ، وأضاف اليها فوائد سمحت القريحة بنقلها ، وقد فرغ من تأليف هذا الكتاب سنة

872 هـ ، غير أن همته لم تقنع بهذا المجهود العظيم فوضع كتابه الثاني « الاتقان في علوم القرآن » وقد ذكر فيه ثمانين نوعا من أنواع علوم القرآن على سبيل الادماج والاجمال ، وقال بعد أن سردها نوعا نوعا : ولو نوعت باعتبار ما ادمجته لزادت على الثلاثمائة [1] .

وكتاب الاتقان مع كتاب البرهان للزركشي عمدة الباحثين في علوم القرآن في العصر الحديث .

ولم يعرف القرن العاشر بعد السيوطي ، وكذلك القرن الحادي عشر ، والثاني عشر والثالث عشر مؤلفات لها قيمتها في هذا الفن ، على الرغم من ظهور مؤلفات وموسوعات علمية قيمة في الفقه والحديث والتفسير .

وفي القرن الرابع عشر أقبل على الكتابة في علوم القرآن بالمفهوم العام والخاص كثير من العلماء والباحثين ، ومن أهم ما ألف في هذه العلوم بالمعنى الاصطلاحي : كتاب الشيخ طاهر الجزائري (ت 1338 هـ) وعنوانه : « التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الاتقان » وقد جمع في هذا

---

(1) انظر مناهل العرفان حـ 1 ص 19.

الكتاب جل مباحث علوم القرآن ، وقد أراد الشيخ طاهر أن يكون كتابه هذا مقدمة للتفسير ، الـذي كان قد عزم على تأليفه (1) . وكتاب الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني أحد علماء الأزهر المعاصرين ، وعنوانه : « مناهل العرفان في علوم القرآن » ويمتاز هذا الكتاب بطلاوة الاسلوب والافاضة في عرض المسائل ، وايراد الشبهات المختلفة مع مناقشتها وتفنيدها ، والاشارة في مواطن كثيرة إلى واجب المسلمين نحو القرآن الكريم دراسةً له وعملاً به ، ويتألف هذا الكتاب من جزءين تضمنا سبعة عشر بحثا في تاريخ علوم القرآن ، وأهم هذه العلوم .

وظهر سوى هذين الكتابين مؤلفات متعددة تتفاوت إيجازا واطنابا ، وعمقا وسطحية ، وأخذا بالمنهج العلمي في البحث والدراسة .

أما المؤلفات التي درست علوم القرآن بالمفهوم العام فكثيرة وتتفاوت أيضا من حيث الايجاز والاطناب والعمق والسطحية ولا مجال هنا لذكرها .

---

(1) انظر لمحات في المكتبة والبحث والمصادر للدكتور محمد عجاج الخطيب ص 148.

ولأن قضايا العلوم القرآنية بالمعنى الاصطلاحي كثيرة ولا سبيل للحديث عنها في هذه الدراسة الموجزة رأيت الاجتزاء بطرف منها ، وما يمكن أن يكون موضع اهتمام عامة المثقفين والباحثين وهو ما يلي :

1 ـ فواتح السور .

2 ـ المكي والمدني .

3 ـ اسباب النزول .

4 ـ الناسخ والمنسوخ .

5 ـ المحكم والمتشابه .

6 ـ الإعجاز .

7 ـ التفسير .

8 ـ الترجمة .

9 ـ منهج القرآن في تقرير الأحكام .

10 ـ تحمّل القرآن وآداب تلاوته .

والحديث عن هذه العلوم يتوخى تقـديم صورة موجـزة واضحـة ـ كما أومـأت في المقدمـة ـ دون اهتمام بسرد الآراء الخلافية التي لا طائل من ورائها .

الفصل الأول

« فـواتـحُ السّـور »

يقصد بفواتح السور تلك الابتداءات التي حاول العلماء معرفة أسرارها والكشف عن الحكمة أو العلة في استهلال بعض سور القرآن بها ؛ لأنها جاءت على هيئة حروف التهجي ، ولم يكن هذا مألوفا في افتتاح الكلام بين العرب .

وقد كان الكلام في هذه الفواتح ؛ لتفسيرها سببا للحديث عن فواتح السور القرآنية كلها ، وقد أفرد بعض العلماء هذه الفواتح بالتأليف منهم ابن أبي الاصبع (ت : 654 هـ) في كتابه : الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح » .

ولا تخرج سور القرآن من حيث الافتتاح عن عشرة أنواع من الكلام . .

الأول : الاستفتاح بالثناء على الله تعالى .

والثناء قسمان : اثبات لصفات المدح ، ونفي وتنزيه من

صفات النقص .

والاثبات نحو الحمد لله ، وقد جاء في خمس سور هي : الفاتحة والانعام والكهف وسبأ وفاطر ، وتبارك وهو في سورتين : الفرقان والملك [1] .

والنفي والتنزيه نحو ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ ، أو ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ أو ﴿ يسبح لله ﴾ ، وقد جاء هذا في سبع سور هي : الاسراء والحديد والحشر ، والصف ، والجمعة والتغابن والأعلى .

قال صاحب البرهان : فهذه أربع عشرة سورة استفتحت بالثناء على الله : نصفها لثبوت صفات الكمال ، ونصفها لسلب النقائص [2] .

الثاني : الاستفتاح بالنداء ، وذلك في عشر سور : خمس جاءت في نداء النبي صلى الله عليه وسلم مثل : ﴿ يأيها النبي ﴾ ﴿ يأيها المدثر ﴾ ، ﴿ يأيها المزمل ﴾ وخمس في خطاب الناس مثل ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ ﴿ يأيها الناس ﴾ .

---

(1) انظر البرهان حـ 1 ص 164 ، ودراسات قرآنية للدكتور عدنان زرزور حـ 1 ص 166.

(2) البرهان حـ 1 ص 165.

أما التي جاءت نداء للنبي صلى الله عليه وسلم فهي : الاحزاب والطلاق والتحريم والمزمل والمدثر .

وأما التي وردت في خطاب الناس فهي : النساء والمائدة والحج والحجرات والممتحنة .

الثالث : الاستفتاح بالجملة الخبرية وذلك نحو : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ و ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ و ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ . .

والاستفتاح بهذا الاسلوب الخبري ورد في ثلاث وعشرين سورة هي : الانفال وبراءة والنحل والأنبياء والمؤمنون والنور والزمر ومحمد والفتح والقمر والرحمن والمجادلة والحاقة والمعارج ونوح والقيامة وعبس والبلد والقدر والبينة والقارعة والتكاثر والكوثر .

الرابع : الاستفتاح بالقسم . نحو﴿ والصافات ﴾ و ﴿ السماء ذات البروج ﴾ . و ﴿ العصر ﴾ وذلك في خمس عشرة سورة هي : الصافات والذاريات والطور والنجم والمرسلات والنازعات والبروج والطارق والفجر والشمس والليل والضحى والتين والعاديات والعصر .

الخامس : الاستفتاح بالشرط نحو﴿ إذا وقعت

لواقعة ﴾ و ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ و ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، وذلك في سبع سور هي : الواقعة والمنافقون والانفطار والانشقاق والتكوير والزلزلة والنصر .

السادس : الاستفتاح بالأمر ، نحو « اقرأ » و« قل » وذلك في ست سور هي : الجن والعلق والكافرون والاخلاص والفلق والناس .

السابع : الاستفتاح بالاستفهام نحو « ألم تر » و ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ و ﴿ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ . وذلك في ست سور هي : الانسان والنبأ والغاشية والشرح والفيل والماعون .

الثامن : الاستفتاح بالدعاء نحو « ويل » و« تبت » ، وذلك في ثلاث سور هي : المطففون والهمزة والمسد .

التاسع : الاستفتاح بالتعليل في سورة واحدة هي قريش فقد بدئت بقوله تعالى : لإيلاف قريش . .

العاشر : الاستفتاح بحروف التهجي ، أي الحروف المقطعة ، وقد جاء في تسع وعشرين سورة . وهذه الفواتح التي وردت في صورة حروف مقطعة تباينت من حيث عدد

الحروف أو الصيغ فمنها ما هو مؤلف من حرف واحد ، وقد جاء هذا في ثلاث سور هي : صاد وقاف والقلم ، فالأولى بدئت بحرف « ص » والثانية بدئت بحرف « ق » والثالثة بدئت بحرف « ن » .

ومنها ما هو مؤلف من حرفين ، وذلك في تسع سور : ست منها بدئت بهذين الحرفين « حم » وتسمى الحواميم وهي : غافر أو المؤمن وفصلت والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف . والثلاث الباقية هي « طه » المفتتحة بهذين الحرفين ، والنمل المفتتحة بـ « طس » و« يس » المفتتحة بهذين الحرفين .

ومنها ما هو مؤلف من ثلاثة أحرف ، وقد جاء هذا في ثلاث عشرة سورة ، ست منها بلفظ « الم » وهي : البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة . وخمس منها بلفظ « الر » وهي : يونس وهود ويوسف وابراهيم والحجر . واثنتان بلفظ « طسم » في سورتي الشعراء والقصص .

ومنها ما هو مؤلف من أربعة أحرف ، وذلك في سورتي الأعراف والرعد ، فقد بدئت الأولى بـ « المص » والثانية بـ « المر » .

ومنها ما هو مؤلف من خمسة أحرف وذلك في سورتي مريم والشورى ، فالأولى بدئت بهذه الأحرف « كهيعص » والثانية بدئت بـ « حم عسق » .

ويتضح من هذا أن عدد الفواتح أربع عشرة فاتحة ، وأن عدد الحروف التي تتركب منها أربعة عشر حرفا ، وهي نصف الحروف الأبجدية وهذه الحروف هي : ا . ح . ر . س . ص . ط . ع . ق . ك . ل . م . ن . هـ . ي .

وهذه الحروف بالاضافة إلى أنها نصف الحروف الابجدية ففيها كذلك النصف من الحروف المهموسة والمجهورة والحلقية والشديدة والمطبقة والمنفتحة والمستعلية .

وقد أشار الباقلاني في إعجاز القرآن إلى أن مجيء تلك الحروف التي بدئت بها بعض السور على هذا النحو من النصفية سواء بالنسبة لعدد حروف العربية أو لمخارجها وطريقة النطق بها هو مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني فقد قال بعد أن سرد ما تنقسم إليه حروف العربية على ما قسمه أهلها ، وبنوا عليها وجوهها : « وإذا كان القوم ـ الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم في ترتيب العربية ، وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ـ رأوا مباني

اللسان على هذه الجهة ، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على حد التنصيف الذي وصفنا ـ دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه ـ بعد العهد الطويل ـ لا يجوز أن يقع إلا من الله عز وجل ؛ لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب »[1] .

موقف العلماء من هذه الفواتح :

إن فواتح السور القرآنية بغير حروف التهجي واضحة الدلالة ، ولذا لم يدرسها العلماء دراسة خاصة ، ولكن الفواتح بالحروف المقطعة ، أو الحروف النورانية ـ كما يسميها بعض العلماء ـ حظيت باهتمام خاص من الباحثين والدارسين ، فكثرت آراؤهم في تفسيرها ومحاولة الكشف عن سر الاستفتاح بها ، وحاول بعضهم دراسة قيمتها العددية أو الحديث عن خصائصها الصوتية .

وقد اختلف البصريون والكوفيون حول اعتبار هذه الحروف آيات أو عدم اعتبارها ، فأما البصريون فلم يعدوا شيئا منها آية ، وأما الكوفيون فقد عدوا بعضها آيات دون بعضها الآخر ، ويرون أن ما قالوه في هذا علم توقيفي لا مجال

(1) اعجاز القرآن ص 45 ت الاستاذ سيد صقر .

للقياس فيه [1] .

ومع كثرة آراء العلماء في تفسير هذه الحروف ـ وهي آراء اجتهادية ليس منها ما يرتد إلى أصل لا اختلاف فيه ـ يمكن القول بأن هناك اتجاهين يمثلان موقف العلماء بوجه عام من هذه الفواتح . .

الاتجاه الأول : يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى عدم الخوض في هذه الحروف المقطعة ، ويرونها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله فهو علم مستور ، وسر محجوب استأثر الله به ، وهذا الاتجاه يعزى إلى بعض الصحابة والتابعين ، كما أخذ به بعض المحدثين . ينسب إلى أبي بكر رضي الله عنه أنه قال عن هذه الحروف : في كل كتابٍ لله سر ، وسره في القرآن أوائل السور، كما نقل عن الامام علي كرم الله وجهه «إن لكل كتاب صفوةً ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي » وجاء عن الشعبي أنه قال في هذه الحروف : إنها من المتشابه نؤمن بظاهرها ونَكِل العلم فيها إلى الله عز وجل [2] .

وروى عن الإمام محمد عبده أنه قال وهو بصدد شرحه

---

(1) انظر في علوم القرآن للدكتور محمد عبد السلام كفافي ص 133.
(2) البرهان حـ 1 ص 173.

لصدر سورة البقرة : ﴿ الم ﴾ هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به ، ولا يضر وضع الاسم الواحد كـ ﴿ الم ﴾ لعدة سور ؛ لأنه من المشترك الذي يعين معناه اتصاله بمسماه ، وحكمة التسمية والاختلاف في ﴿ الم ﴾ و﴿ المص ﴾ نُفوِّض الأمر فيها إلى المُسمَّى سبحانه وتعالى، ويسعنا في ذلك ما وسع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم ، وليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل التي قلما يسلم مخترعها من الزلل [1].

ويذهب الشيخ محمود شلتوت إلى أن القول بأن هذه الحروف أسماء للسور يرده اشتهار السور بأسماء أخرى غير هذه الحروف كسورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة الاعراف ، وسورة مريم ، وما إليها ، فلو كانت أسماء للسور كما يقولون لتواترت على ألسنة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى ألسنة المؤمنين جيلا بعد جيل . ثم يذهب مع هذا إلى أن فواتح السور من أسرار القرآن التي لا يدركها البشر ، وأن هذا لا يتعارض مع وصف الكتاب العزيز بما وصف به من أنه هدى وتبيان ؛ لأن مثل هذه الحروف لا يتعلق

---

(1) تفسير المنار حـ 1 ص 122.

بها تكليف وارشاد ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن القرآن ما دام واضحا في جملته وفيا قصد به فلا بأس من أن يرد فيه بعض ما استأثر الله بعلمه ؛ تنبيها على القدرة التامة في جانب الربوبية ، والقصور في جانب العبودية ، وتلك سنة الله في خلقه وتكاليفه ، فكم له في الكون من أسرار تنقضي الدنيا ولا تدرك ، وكم له في التكاليف من أسرار لا يملك العبد أمامها إلا أن يمتثل [1] .

الاتجاه الثاني . . وهو اتجاه المتكلمين الذين ذهبوا إلى أن القرآن الكريم جاء بلسان عربي مبين ، وأمرنا الله بتدبر هذا الكتاب العزيز ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [2] ولذا لا يجوز أن يرد في القرآن ما لا يفهمه الخلق ، وعلى المؤمن أن يحاول ما استطاع دراسة هذه الأحرف وتفسيرها ، ولا يخلق به أن يقف منها موقفا سلبيا ، ولكن أصحاب هذا الاتجاه لم يجمعوا على تفسير لهذه الأحرف ، وكثرت وجوه هذا التفسير لديهم ، ذكر منها الزركشي في البرهان عشرين وجها ، ومن قبله أفاض الطبري في تعداد

---

(1) انظر تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت جـ 1 ص 54 — 57.
(2) الآية 24 في سورة محمد .

الوجوه المنقولة عن أئمة التفسير من الصحابة والتابعين .

ومن وجوه تفسير الحروف المقطعة أنها مأخوذة من أسماء الله الحسنى أو مفاتيح لها ، فكل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه، اذ هي برمتها وعلى اختلاف صيغها اسم الله الأعظم ، عبر عنه تعبيرات مختلفة تباين ما عهدناه في تأليف كلامنا .

ويرى بعض العلماء أنها أسماء للسور التي افتتحت بها كما نقل عن الامام محمد عبده ومن قبله قال الزمخشري : وعليه ـ أي على هذا التفسير ـ اطباق الأكثر [1] .

ومن العلماء من يذهب إلى أنها جاءت للتنبيه كما في النداء ، عَمَدَ القرآن اليها ؛ ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات ، ثم اختلفوا فيمن يكون المقصود بهذا التنبيه ، فقيل إنها تنبيه للعرب علهم يهتدون ، يقول الزركشي : إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه ، وقال بعضهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » [2] فانزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ، ويكون تعجبهم سببا لاستماع ما بعده ، فترق القلوب ، وتلين الافئدة[٢] .

---

(1) الكشاف جـ 1 ص 83 ط الحلبي .

(2) البرهان جـ 2 ص 175.

وقال أبـو حيان الأنـدلسي : وقـال قوم إن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمـكة نزلـت (أي هذه الأحـرف) ليستغربوها ، فيفتحون لها أسماعهم فيستمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجـة [1] وقيل إنهـا تنبيه للنبـي صلى الله عليه وسلم ، جاء في الاتقان : القول بأنهـا تنبيهـات جيد ؛ لأن القرآن كلام عزيز وفوائده عزيزة ، فينبغي أن يرد على سمـع مُتنبه، فكان من الجائز أن يكون الله قدعلم في بعض الأوقات كون النبي صلى الله عليه وسلم في عالم البشر مشغولا ، فأمر جبـريل بأن يقـول عنـد نزولـه : ﴿ الم ﴾ و﴿ الـر ﴾ و﴿ حم ﴾ ليسمع النبي صوت جبريل ، فيقبل عليه ويصغى إليه ، قال : وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كألا وأما ؛ لأنها من الالفاظ التي يتعارفهـا النـاس في كلامهـم ، والقرآن كلام لا يشبه الكلام ، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد ؛ ليكون أبلغ في قرع سمعه [2] .

وهذا الرأي الذي يرى أن الحروف المقطعة التي استهلت بها بعض السور إنما قصد بها تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يوحي إليه يرده ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم عن

(1) البحر المحيط حـ 1 ص 34 ط المغرب .

(2) الاتقان حـ 2 ص 11 ط المطبعة الحجازية المصرية .

طريقة نزول الوحي على قلبه ، قال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول[1] ففي هذا الحديث إشارة إلى صورتين من الوحي : إحداهما عن طريق القاء القول الثقيل على قلبه ، ولديه يسمع صوتا متعاقبا متداركا كصوت الجرس المصلصل المجلجل ، والثانية عن طريق تمثل جبريل له بصورة إنسان يشاكله في المظهر ولا ينافره ، ويطمئنه بالقول ولا يرعبه ، ولا شك في أن هذه الصورة من الوحي أخف وطأ وألف وقعا من تلك الصورة التي تحفها جلجلة الأصوات ورشح الجبين عرقا في اليوم الشديد البرد .

وفي كلتا الصورتين يحرص النبي صلى الله عليه وسلم على وعي ما أوحى إليه ، إذ قال في الأول : « فيفصم عني وقد وعيت ما قال » وفي الثانية « فيكلمني فأعي ما يقول » ، فأثبت لنفسه الوعي الكامل لحالته قبل الوحي ، وحالته بعد الوحي ، وحالته أثناء الوحي ، سواء أخفت أم اشتدت وطأة النازل القرآني عليه ، ومن ثم لا يحتاج إلى تنبيه ، لأنه لم يكن

(1) صحيح البخاري حـ 1 ص 6 ، ويفصم عني ، أي ينكشف وينجلي .

يشغله عن الوحي شاغل ما ، بل إنـه في أول عهـده بنـزول الوحي ـ مخافة ضياع بعض الآيات من صدره ـ يعجل بالقرآن من قبـل أن يقضي إليه وحيه ، ويحـرك به لسانـه وشـفتيه ؛ ليستذكره ولا ينساه ، ويحرص على متابعة جبريل في كل حرف يدارسه إياه حتى يسر الله عليه حفظه بتفريقه وتنجيمه ، وأمره بالاطمئنان إلى وعده فقال: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنـه ، فإذا قرأنـاه فاتبـع قرآنـه ، ثم إن علينـا بيانه﴾ [1] ونهاه عن هذه العجلة التي لا مسوغ لها فقال : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه ، وقل رب زدني علما﴾ [2] .

والأقـرب إلى الصحـة أن تكون هذه الحـروف تنبيهـا للعرب المعرضين عن دعوة الحق ، والذين كانـوا ينهـون عن سماع كلام الله ، وأمـروا باللغـوفية كما قال الـزركشي وأبـو حيان ، ورجحه بعض المحدثين فقال : « مـن حسـن البيان وبلاغة التعبير التي غايتها إفهام المراد مع الاقناع والتأثير أن ينبه المتكلم المخاطـب إلى أمهـات كلامـه والمقاصـد الأولى بهـا ،

---

(1) الآية 16 — 19 في سورة القيامة .

(2) الآية 114 في سورة طه ، وانظر مباحث في علوم القرآن ص 27 — 29 ، والنبأ العظيم ص 32

ويحرص على أن يحيط علمه بما يريده هو منها ، ويجتهد في انزالها من نفسه في أفضل منازلها ، ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها لكيلا يفوته شيء منها ، وقد جعلت العرب منه هاء التنبيه وأداة الاستفتاح فأي غرابة في أن يزيد عليهما القرآن الذي بلغ حد الاعجاز في البلاغة وحسن البيان ، ويجب أن يكون الامام المقتدى ، كما أنه هو الإمام في الاصلاح والهدى ؟ ، ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من رفع الصوت وتكييفه بما تقتضيه الحال من صيحة التخويف والزجر أو غنة الاسترحام والعطف ، أو رنة النعي وإثارة الحزن ، أو نغمة التشويق والشجو ، أو هيعة الاستصراخ عند الفزع أو صخب التهويس وقت الجدل ، ومنه الاستعانة بالاشارات وتصوير المعاني بالحركات ، ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة او وضع خط فوقها أو تحتها [1] .

ثم عقب صاحب هذا الرأي على ما انتهى اليه في تفسير هذه الاحرف بقوله : وقد ظهر بما استقصيناه من التتبع أنه لم يبين هذه الحكمة أحد بمثل ما بيناها به ابتداء ولله الحمد [2] .

ومن العلماء من يذهب إلى أن تلك الحروف قسم ،

---

(1) تفسير المنار حـ 8 ص 299 ط ثالثة .

(2) المصدر السابق ص 303

لتأكيد أن هذا الكتاب الذي يقرؤه محمد هو الكتاب المنزل الذي لا شك فيه ، وذلك يدل على جلالة قدر هذه الحروف ؛ إذ كانت مادة البيان . . . وقد أقسم الله تعالى بـ « الفجر » و« الطور » ، فكذلك شأن هذه الحروف في القسم بها [1] .

وأشهر ما ورد في تفسير هذه الحروف أنها تدل على أن القرآن مؤلف من الحروف التي يتكلم بها العرب، فهو بلغتهم وعليهم إن كانوا لا يصدقون أنه من عند الله أن يأتوا بشيء من مثله ، فهذه الحروف إذن جاءت للتحدي والاعجاز وبيان أن القرآن ليس سحرا أو ما يشبه السحر .

ولعل مما يرجح هذا التفسير أن السور التي افتتحت بهذه الحروف كلها مكية سوى البقرة وآل عمران ، والرعد في رأي من يرى ان هذه السورة مكية ، فقد اختلف فيها ، أمدنية أم مكية ورجح بعض المعاصرين أنها مكية فكرة وأسلوبا [2] ، وأن التحدي كان في المرحلة المكية حيث وقف الشرك من الدعوة الخاتمة موقفا مناوئا ، لم يدع وسيلة من وسائل العنت والاضطهاد إلا اخذ بها ، وكان المؤمنون يلوذون بالصبر وتحمل

---

(1) انظر البرهان جـ 1 ص 173.

(2) انظر مباحث في علوم القرآن ص 182 هامش 5.

الأذى حتى نصرهم الله نصرا عزيزا .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا أبلغ الحرص على اخراج قومه من الظلمات إلى النور ، فكان التحدي في هذه المرحلة أمراً طبيعيا ؛ لكسر حدة الطغيان ، ولاظهار عجز المكابرين والمعاندين ولاثبات أن الحق الذي لا مراء فيه هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقوي ذلك التفسير أن كل سورة افتتحت بالحروف المقطعة ذكر فيها الانتصار للقرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من الحروف التي يتخاطب بها العرب [1] .

وفي العصر الحاضر كانت المحاولة الجديدة التي قام بها الدكتور رشاد خليفة لتفسير هذه الفواتح ، فقد وجد أن عدد أحرف ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وهو تسعة عشر حرفا ، له علاقة وثيقة بالحروف المقطعة التي استهلت بها بعض السور القرآنية ؛ إذ اكتشف أن كل سورة افتتحت بحرف أو أكثر من هذه الحروف قد تكرر في نفس السورة ؛ وفقا لعدد دقيق هو عبارة عن مضاعفات للعدد (19) .

---

(1) انظر الاعجاز البياني للقرآن للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص 140 .

وقد اعتمد في هذه الدراسة على الحاسب الآلي ، وانتهى إلى اكتشاف هذه الحقيقة العلمية التي تؤكد أنه ليس في قدرة انسان مهما أوتي من فصاحة البيان أن يفعل هذا ، إنها قدرة الله التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء .

ومما يشهد لهذه المحاولة بالتوفيق ، وأنها كشفت عن حقيقة علمية تؤكد اعجاز القرآن ما جاء عن سورة ﴿ ق ﴾ فهذه السورة تكرر الحرف ﴿ ق ﴾ فيها 57 مرة وهو يساوي ثلاثة أمثال العدد 19 ، ولكن الذي يلفت النظر أن الآية الثالثة عشرة في هذه السورة وهي قوله تعالى : ﴿ وعاد وفرعون واخوان لوط ﴾ جاءت كلمة لوط مسبوقة بكلمة « اخوان » ، على حين أن تلك الكلمة وردت في عدة آيات من سور[1] أخرى مسبوقة بكلمة « قوم » ولو جاءت كلمة « لوط » في هذه الآية مسبوقة بكلمة « قوم » لأصبح عدد الحرف « ق » 58 ولن يقبل القسمة على العدد 19 ، وبذلك لا تستقيم قاعدة الحروف المقطعة ، ويختل نظامها[2] .

على أن هذه المحاولة في دراسة الفواتح القرآنية بالحروف

---

(1) مثل الآية رقم 70 في سورة « هود » .

(2) انظر مجلة « الفكر » التونسية عدد 5 من السنة 26 ص 93.

النـورانية أشار إليهـا بعض الـذين كتبـوا قديمـا في العلـوم القرآنية ، قال الـزركشي : « وقـد تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها (الر) مائتا كلمة أو أكثر ، فلهذا افتتحت بها ، واشتملت سورة « ص » على خصومات متعددة فأولها خصومة النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفـار ، والخصمـين عند داود ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصام الملأ الأعلى ، ثم تخاصم ابليس في شأن آدم »[1] .

ولـكن إشـارات القدمـاء لـم تحمـل طابـع الاستقـراء العلمي ، وكانت أشبـه ما تكون بالملاحظـة التـي تحتـاج إلى التجربة لاثباتها أو تأكيدها ، غير أنها كانت على أية حال ـ فيما أرى ـ المفتاح أو الخيط الذي أمسك به الدكتور خليفة فكشف عما انتهى إليه في دراسته الموفقة لتلك الفواتح .

وهـذه المحاولـة الجـديدة آية على أن القـرآن معجـزة الدهر ، وأنه في كل عصر يمدنا بما يدفع قول المشركين ونحوهم من أنه أساطير الأولين اكتتبها محمد ما دمنا نتدبر هذا الكتاب العزيز ، ولا نقف عندما قاله السابقون أو نجمـد عليه ، فهم بما أتيح لهم من وسائل المعرفة في زمنهم قد قالـوا ما قالـوا ،

(1) انظر البرهان حـ 1 ص 170.

وعلينا أن ننتفع بما خلفوه لنا وأن نفكر كما فكروا ، ولكن بما يتلاءم مع تطور الحياة العلمية دون أن ننسى أن التفكير العلمي شيء ، واخضاع القرآن للنظريات المتجددة التي لا تثبت على حال شيء آخر .

وإذا كان قد أطلق على محاولة الدكتور رشاد الإعجاز العددي للقرآن الكريم فإنها في الواقع مظهر من مظاهر الاعجاز البياني ، وقد أعان على بلوغها العلم الحديث .

ومع كل ما قيل في تفسير ابتداءات السور القرآنية بالحروف المقطعة من آراء سيبقى باب الاجتهاد حولها مفتوحا ، فكل ما صدر عن الباحثين قديما وحديثا اجتهادات ومحاولات لم تغلق باب البحث ، ولم تصل إلى تفسير يقبله الجميع [1] .

---

(1) للصوفية تفسيرات باطنية للحروف المقطعة ، وهي شطحات تعتمد على مواجد القوم وأذواقهم ، ولا تعطى صورة صادقة عن التفسير الاسلامي المعتمد لتلك الحروف ، كما أن للمستشرقين آراءً أبعد في الغرابة والشذوذ والبعد عن الحق في هذا الموضوع ، ومنها أن هذه الحروف مأخوذة من أسماء بعض الصحابة الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة ، أو أنها مأخوذة من الأحرف البارزة الغالبة في بعض الآيات (وانظر مباحث في علوم القرآن ص 240 — 242) .

الفصل الثاني

« المكي والمدني »

من شواهد اهتمام المسلمين بالقرآن الكريم ذلك التتبع الدقيق لمراحل الوحي، ومعرفة مواطن نزول الآيات أو أوقاتها، وقد أداهم ذلك إلى تمييز ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها ، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل ، وما نزل في الحضر وما نزل في السفر ، وما نزل في البرد وما نزل في الحر الى غير ذلك من الدقة في الاستقراء والاستقصاء ، وهذا يؤكد الثقة المطلقة بوصول القرآن الينا كما أنزله الله لم يلحقه تغيير أو تحريف ؛ لأن هذا الاهتمام البالغ بمعرفة أماكن نزول الآيات أو زمنها يدل على أن الصحابة كانوا حماة متحمسين لهذا الكتاب الخالد ، فليس معقولا أن يغفلوا عن بعضه ، أو أن يدعوا أحداً يحاول أن يعبث به أو يسيء إليه .

ولكن المصطلح الذي اشتهر بين العلماء والباحثين في تتبع مراحل الوحي ونزول الآيات هو مصطلح « المكي والمدني » .

ولهذا المصطلح اطلاقات ثلاثة :

الأول : إن المكي ما نزل بمكة قبل الهجرة أو بعدها ، والمدني ما نزل بالمدينة ، ويدخل في مكة ضواحيها كمنى وعرفات والحديبية كما يدخل في المدينة ضواحيها كبدر وأحد .

وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول .

الثاني : إن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة دون اعتبار لمكان النزول أو زمانه . وهذا التقسيم لوحظ فيه المخاطبون .

وأخذ على هذين الاطلاقين أنهما غير ضابطين ولا حاصرين ، فبعض الآيات لم ينزل في مكة أو المدينة أو ضواحيهما ، كالذي نزل في تبوك مثلا ، كما أن هناك آيات لم تقع خطابا لأهل مكة أو أهل المدينة أو هما معا كالآيات التي خوطب بها النبي صلى الله عليه وسلم في صدر سورتي الاحزاب والمنافقين .

الثالث : إن المكي ما نزل قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وإن كان نزوله بغير مكة ، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله بمكة [1] .

---

(1) انظر البرهان جـ 1 ص 187 ، والاتقان جـ 1 ص 23.

وهذا الاطلاق الثالث هو المعول عليه في دراسة المكي والمدني من القرآن ، فقد لوحظ فيه زمن النزول ـ وإن كان لم يغفل المكان والأشخاص والموضوع ـ وهو تقسيم صحيح سليم ؛ لأنه ضابط حاصر ، ومطرد لا يختلف [1] . .

وهناك سور نزلت كل آياتها بمكة كسورة « هود » و« يوسف » ، وسور نزلت كل آياتها بالمدينة كسورة « آل عمران » وسور اجتمع فيها المكي والمدني ، فما غلب عليها المكي سميت مكية ، كسورة الأنعام ، فقد نزلت بمكة إلا بضع آيات نزلت بعد الهجرة ، وما غلب عليها المدني سميت مدنية كسورة « التوبة » فقد نزلت بالمدينة إلا بعض آيات منها نزلت بمكة .

على أن معرفة المكي والمدني طريقه النقل الصحيح من الصحابة الذين عاينوا الوحي ، وكانوا ينتظرون نزول الآيات في شوق ، ويتسابقون في حفظ ما ينزل وفهمه والعمل به .

وقد نقل عن بعضهم أنه كان يعلم كل سور القرآن من حيث أماكن النزول وأسبابه ، فهذا عبد الله بن مسعود يقول : والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا

(1) انظر مناهل العرفان جـ 1 ص 186 .

وأنا اعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وانا أعلم فيما أنزلت ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت إليه [1] .

ولا جدال في أن الصحابة لم يكونوا جميعا كابن مسعود في احاطته بتاريخ القرآن وأسباب نزوله ، فمنهم من لم يتوفر على ذلك ، ولكن الذين اشتهروا بقراءة القرآن وحفظه ونقله من فم الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وهم كثيرون ـ كانوا يحفظون مع نطق الآية وتلقيها وكتابتها تاريخ نزولها .

ويذهب بعض الباحثين [2] إلى أن الاجتهاد مع السماع طريق أيضا لمعرفة المكي والمدني ، وقد أخذ بهذا اعتمادا على ما نقله صاحب البرهان والاتقان عن القاضي أبي بكر محمد بن أبي الطيب الباقلاني (ت : 403 هـ) في كتابه « الإنتصار لصحة نقل القرآن والرد على من نحله الفساد بزيادة أو نقصان » فالباقلاني في هذا الكتاب كما تشير النصوص التي نقلها الزركشي والسيوطي ـ لا يقصر معرفة المكي والمدني على

(1) من روائع القرآن ص 99 ، ويجب الا يؤخذ ما روي عن ابن مسعود أن لكل آية سبباً في النزول ، وكل ما يدل عليه مثل هذا القول هو عناية الصحابة الفائقة بالكتاب الكريم .

(2) في علوم القرآن ص 52 .

السماع ، كما لا يجعل هذه المعرفة فرضا عينيا على كل مسلم ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له في ذلك قول ، ولم يحدد للصحابة قدر ما نزل من القرآن بمكة وما نزل بالمدينة [1] .

أما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له قول في هذا فواضح أن الأمر لم يكن بحاجة إلى بيان ؛ لأن الصحابة كانوا يشاهدون الوحي ويتتبعون كل دقائقه ، فهم على دراية وافية به ، وكان كتاب الوحي في طليعة الصحابة الذين كانت معرفتهم بالقرآن وتاريخه شاملة .

ولا ريب في أن معرفة المكي والمدني وسائر العلوم القرآنية ليست واجبا عينيا ، وإنما هي واجب كفائي ،فلا يعقل أن يفرض على المسلمين جميعا المعرفة الدقيقة بكل ما يتعلق بالقرآن وعلومه ؛ فلهذه المعرفة طائفة هم الذين يتفقهون في الدين ، ويتخصصون في دراسته والاجتهاد فيه .

المطلوب من العلم :

إن على كل مسلم ومسلمة أن يُلمَّ بكل ما هو معلوم من الدين بالضرورة كالواجبات والمحرمات ، وأن يطلب من

(1) انظر البرهان حـ 1 ص 192 .

العلم ما يقيم به شعائر دينه صحيحة ، وهذا هو معنى ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولا عليهما بعد ذلك إن كانا لا يدركان ما يدق من القضايا أو يَجِدّ منها ، فلهذه القضايا طائفة المتفقهين والمتخصصين ، ومعرفة المكي والمدني هي من تلك القضايا التي تدخل دراستها في باب الواجب الكفائي .

ومعرفة المكي والمدني عن غير طريق النقل الصحيح مجالُه ما لم يرد فيه رواية مقبولة ، وهو قليل ، ولذا كان النقل الصحيح هو المصدر الأول لمعرفة المكي والمدني ، وكان الاجتهاد تَبَعاً له ؛ لأنه يستهدي الضوابط التي تواضع عليها العلماء في بيان خصائص كل من المكي والمدني .

ولكن هل يمكن القول بأن هناك خصائصَ ينفرد بها ما نزل من القرآن في مكة قبل الهجرة ، وخصائصَ ينفرد بها ما نزل من القرآن بعد الهجرة .

إن حديث العلماء عن هذه الخصائص لا يعطى هذا ، اللهم إلا إشارتهم لكلمة « كلا » وأنها لم ترد في سورة مدنية ، وإنما وردت في القرآن ثلاثا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها مكية جاءت في النصف الأخير من القرآن .

وما نزلت كلا بَيَثْرِبَ فاعْلَمَن

ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

وعلل بعضهم ذلك بقوله : وحكمة ذلك أن نصفه الأخير نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة فتكررت على وجه التهديد والتعنيف لهم والانكار عليهم بخلاف النصف الأول وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه ؛ لذلهم وضعفهم[1] .

وما عدا هذا فإن الخصائص التي يمتاز بها كل من المكي والمدني تعد غالبة ، فالآيات المكية تكثر فيها سمات تقل في الآيات المدنية والعكس صحيح .

على أن تلك الخصائص في مجموعها تنقسم قسمين : خصائص تتعلق بالمضمون وخصائص تتعلق بالاسلوب .

خصائص المضمون :

الخصائص التي تتعلق بالمضمون هي الخصائص التي توضح أهم ما اشتمل عليه كل من القرآن المكي والمدني من قضايا وتناوله من أحكام .

والحديث عن هذه الخصائص جميعها يعني الحديث عن القرآن كله وما جاء به من تعاليم ، وعرض له من مبادىء

---

(1) انظر الاتقان حـ 1 ص 29 .

ومفاهيم ، وهو أمر تنوء به دراسة موجزة لا تَتَغَيَّا التفصيل ، وتتبع الجزئيات بقدر ما تحاول تقديم صورة عامة تعطي تمثلا كليا للعلوم القرآنية ، ومن شاء الاستزادة من هذه العلوم فعليه ان يرجع إلى أمهات المصادر فيها ومنها القديم والحديث [1] .

إن ما نزل من القرآن في مكة كان يخاطب مجتمعا وثنيا شاعت فيه المنكرات والموبقات ، ووقف من الدعوة الجديدة موقفا سيئا ، اضطهد الذين آمنوا وصب عليهم العذاب صبا ، وحاول أن يمنع محمدا صلى الله عليه وسلم من تبليغ رسالة ربه ، ولما يئس من نجاحه في ذلك دبر أمره بليل وقرر قتل الرسول صلى الله عليه وسلم في صورة تجعلُ الدم الزكي الطاهر مفرقا بين القبائل ، فلا يقدر أهله على المطالبة بدمه ، ويقبلون الدية وينتهي أمر هذا الداعية الذي سفه الاحلام وعاب الآلهة ، وأفسد على الطغاة والسادة الأرقاءَ والعبيدَ ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [2] .

وواجه المسلمون في مكة المكاره والشدائد في يقين ثابت

(1) من أمهات هذه المصادر البرهان للزركشي والاتقان للسيوطي ، هذا في القديم وفي الحديث التبان للشيخ طاهر الجزائري ، ومناهل العرفان للشيخ الزرقاني ، ومباحث في علوم القرآن للدكتور الصالح .
(2) الآية : 30 في سورة الانفال .

وايمان راسخ ، يزيده الطغيان والكفران اعتصاما بدعوة الحق والهدى ، حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى يثرب فكان لهم فيها الأمن والحرية ، وإن لم يسلموا من كيد اليهود والمنافقين .

هذا المجتمع الذي أومأت إلى طرف من ملامح حياته الدينية والخلقية وموقفه من الدعوة الاسلامية غلب على القرآن الذي خاطبه - وهو أكثر من نصف القرآن بقليل - معالجة قضية الوحدانية وتحرير عقل الإنسان من عبودية غير الله ، والدعوة إلى الايمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وبيان أن هذه الأصنام التي يعنو لها الإنسان ، ويتخذها زلفى إلى الله لا تملك له نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وأن تلك المنكرات التي يأتيها لا تخلق به وبمكانته في هذا الكون ، وأن عليه أن يثوب إلى رشده ، ويقلع عن غيه وشركه ، ويؤمن بخالقه ورازقه ، ويستمسك بخلال الخير والبر .

وكان للقرآن منهجه الفريد في معالجة تلك القضايا التي عرض لها في المرحلة المكية ، وكان قوام هذا المنهج الأمر بالتدبر والتفكير في النفس الإنسانية والكائنات كلها من أرض وسماء وكواكب وحيوانات وجمادات وبحار وأنهار وأشجار

وثمار . . . الخ ، وكان ضرب الأمثال وحكاية أخبار السالفين وما جرى لهم مع أنبيائهم من دعائم هذا المنهج أيضا .

كذلك تحدث القرآن المكي عن صلف الشرك وجبروته وعن صبر المؤمنين وتحملهم العنت والأذى في يقين لا يتزعزع بالنصر والظهور على دولة المنكر والكفر .

أما القرآن الذي نزل في المدينة أو بعد الهجرة بوجه عام فهو يخاطب مجتمعا آخر يختلف في كثير من الوجوه عن المجتمع المكي ، مجتمعا ارتضى الاسلام دينا ، وتوافرت له كل أسباب قيام الدولة ، لذا غلب على القرآن المدني تقرير التشريعات والفرائض التي تنظم المجتمع ، وتحمي الأمة ، وتدفع عنها أطماع الطامعين وكيد الحاقدين ، لقد نزلت كل التشريعات تقريبا في المرحلة المدنية فتشريعات الحدود والفرائض والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية كلها مدنية ، وتشريعات العبادات سوى الصلاة مدنية كذلك ، والأذن بالجهاد المسلح وبيان أحكامه كان في المرحلة المدنية ، ومن ثم خاض المؤمنون في هذه المرحلة عدة معارك ضد قوى البغي والشر ، وانتصر الاسلام فيها انتصارا مؤزرا ، وأصبحت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

وسجل القرآن المدني طبائع النفاق والمنافقين ، ومـدى خطورتها على المجتمع الانساني بوجه عام والمجتمع الاسلامي بوجه خاص ، فقد كان النفـاق في المدينـة شديد الخطـر على الاسـلام والمسلمـين ، وكانـت له وسائلـه المتنوعـة في الـكيد والطعن من الظهر . ومن دلائـل ذلك ما جاء في صدر سورة البقرة ، فقد تحدثت الآيات الأولى منها عن المؤمنين والكافرين والمنافقين ، غير أن حديثها عن المؤمنين لم يتجاوز ثلاث آيات وكذلك حديثها عن الكافرين لم يتجاوز آيتين .

أما الحديث عن المنافقين فقد استغرق ثلاث عشرة آية ، وهو نحو ثلاثة أمثال الآيات التي تحدثت عن الإيمان والكفر ، فكلاهما استقامة على نحو من الأنحاء ، فلا يحتاج القول فيهما سوى آيات معـدودات ، أمـا النفـاق فهـو حلاوة في اللسـان ومرض في القلب ، فالمنافق يدعي الإيمان ويخادع الله بذلك وما يخدع في الواقع إلا نفسه ، إنه يفسد في الأرض ويزعم أنه خير من سواه ، فهو في ضلال وبوار ، ومن ثم كان مآله الـدرك الأسفل من النار ، وبئس المصير ، لذلك احتاج الحديث عن النفـاق إلى تلك الآيات ؛ لاظهـار حقيقتـه والـكشف عن خصاله .

وكما سجل القرآن المدني ما كان من المنافقين من مؤامرات على الاسلام والمسلمين سجل أيضا خصال اليهود وموقفهم الذي لا يتغير على مر العصور من المؤمنين ، إنهم دائما يمكرون مكرا سيئا ، ويكيدون كيدا خبيثا ، ويحملون للمسلمين في كل زمان ومكان حقداً دفينا ، وعداوة ليس بعدها عداوة ، ويكفي أن القرآن الكريم وصفها بقوله : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾[1] .

إن حديث القرآن عن المنافقين واليهود لم يكن تسجيلا لأحداث تاريخية مضت وانتهت ، وإنما هو تسجيل لخصائص نفسية وصفات ذاتية لا تنفك ملازمة لهؤلاء وأولئك ، فإذا لم يكن لنا في حديث القرآن عن المنافقين واليهود تذكرة وعظة فويل لنا منهم جميعا ، إنهم يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، إنهم لن يرضوا عنكم حتى نتبع ملتهم وندع ملة ابراهيم حنيفا ، فخذوا حذركم فالخطر ما حق والشر مستطير .

خصائص الاسلوب .

إن الخصائص الاسلوبية للقرآن المكي والمدني انعكاس

(1) الآية 83 في سورة المائدة .

للخصائص الموضوعية ، فالحديث عن الكفر وطغيانه والشرك واوثانه غير الحديث عن الإيمان وقيمه وتشريعاته ، والمجتمع الذي يعيش في كنفه ويتفيأ ظلاله ، ذلك حديث يحتاج إلى كلمات وعبارات زاجرة ، وخطاب يقرع الالباب والأفئدة ويهز المشاعر والضمائر ؛ ليبدد ما ران عليها من ظلمات الجهالة والضلالة ، وتصوير جريمة الشرك ، ويبرز شناعتها ، وفداحة آثارها ومصير أهلها ، وهذا حديث تلائمه الكلمات التي ترفرف بالنور وتناجي القلوب مناجاة تحن اليها وتهنأ بها ، وتأتي بالقواعد والمبادىء في شمول واجمال .

ومن هنا غلب على القرآن المكي قصر الآيات والسور وإيجازها وحرارة تعبيرها وتجانسها الصوتي[1] ، وكثرة السجع والفواصل وضرب الأمثال ، وأسلوب القسم والتكرار وعرض مشاهد يوم القيامة عرضا يموج بالحياة والحركة وكأن ما سيقع في هذا اليوم مشاهد محسوس[2] للقوم ، علهم يخافون يوما يفر فيه المرء من أحب الناس إليه في دنياه ، فيدعون ما هم عليه من شرك في العقيدة ، وفساد في الاخلاق . على حين غلب على

(1) انظر مباحث في علوم القرآن ص 183 .
(2) انظر مشاهد القيامة في القرآن للاستاذ سيد قطب .

القرآن المدني قلة الفواصل وطول الآيات والسور ، والاسلوب التشريعي الهادىء الذي يوضح المبادىء في استرسال ، ولا يعرض ليوم القيامة كما يعرض له القرآن الذي نزل في مكة .

ولو أخذنا مثلا سورتي « الحجرات » و« ق » ، والأولى مدنية والثانية مكية ، وهما من حيث الحجم سواء ، وقد وضعت الثانية بعد الأولى في ترتيب المصحف نلاحظ تلك الخصائص بنوعيها واضحة ، فعدد آيات « الحجرات » ثماني عشرة آية ، وعدد آيات « ق » خمس وأربعون آية ، وآيات الحجرات تعالج مشكلات تربوية وتهذيبية ، وتقيم أسسا ثابتة للعلاقات بين الناس ، ولكن آيات « ق » تتحدث بوجه عام عن البعث وتضرب الأمثال للتدليل عليه ، وتشير إلى ما يكون بين قرناء السوء من خصومة يوم الدين ، وأن جهنم تقول إذا سئلت هل امتلأتِ : هل من مزيد ، وأن الجنة في هذا اليوم أزلفت للمتقين ، وأن في ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد .

وأورد فيما يلي أربعة أسطر من كل سورة تستفرق من الحجرات آيتين ، على حين تستفرق من « ق » سبع آيات ، بالاضافة إلى الاختلاف في الموضوع حيث تعرض آيتا الحجرات

للاقتتال بين طائفتين من المسلمين وماذا يجب حياله ، أما آيات «ق » فتتحدث عن مشهد من مشاهد القيامة ، إنه مشهد قرناء السوء الذين يختصمون في هذا اليوم ، ويحاول كل قرين أن يتنصل من تبعة إضلال غيره .

قال تعالى في سورة الحجرات :

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوابينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرْحمون ﴾ .

وقال تعالى في سورة « ق » :

﴿ وقال قرينهُ هذَا ما لَدَيَّ عَتِيد . الْقِيا في جَهنَّم كلَّ كفَّار عنيد . مناعٍ للخيْر مُعْتد مُرِيب . الذي جَعَل مع الله إلهاً آخرَ فألْقياه في العذابِ الشَّديد . قال قرينُه ربَّنا ما أطغَيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال لا تَخْتَصِمُوا لديَّ وقد قدَّمت إليكم بالوعيد . ما يُبدَّل القول لدَيَّ وما أنا بظلاَّم لِلْعَبيد ﴾ .

على أن هذه الخصائص العامة التي يتميز بها كل من

القرآن المكي والمدني لا تعني أن القرآن وحي البيئة فيما جاء به ، وانما تعني مظهراً من مظاهر الاعجاز ، حيث تنوع الاسلوب القرآني ؛ طوعا لاختلاف الموضوعات وتباين المخاطبين .

إن تنوع موضوعات القرآن المكي والمدني هو الباعث الأهم على تنوع الأسلوب القرآني ، فما هما بالاسلوبين المتعارضين اللذين لا تربط بينهما صلة ، وإنما هو أسلوب واحد يشتد أو يلين ، ويفصل أو يجمل ؛ تبعا لحال المخاطبين ، وهذا سر من أسرار الاعجاز التي يمتاز بها القرآن الكريم [1] .

أما ما يزعمه بعض المستشرقين من أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أتى بالقرآن من عنده ، وتأثر بالبيئة في صياغته ومحتواه فهو زعم باطل ولا يستند إلى دليل وهو امتدادا لما قاله المشركون من قبل ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا ﴾ [2] ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواهم ان يقولون إلا كذبا ﴾ [3] .

ودراسة المكي والمدني ـ فضلا عن دلالتها على بعض

---

(1) انظر مباحث في علوم القرآن ص 233 .
(2) الآية 5 في سورة الفرقان .
(3) الآية 5 في سورة الكهف .

وجوه الاعجاز القرآني - تفيد في معرفة تطور الدعوة والمشكلات التي اعترضت طريقها ، وكيف كان التغلب عليها ، حتى دالت دولة الشرك ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

كما تفيد أيضا في معرفة مراحل التشريع وتدرجه ، وأثر هذا في ترسيخ المفاهيم القرآنية بين المؤمنين ، ومن هنا كان منهج القرآن في التدرج التشريعي من أنجح المناهج في تكوين النفوس المستنيرة المشبعة بالحكمة والخلق المتين ، فهو منهج لا يعامل الناس في مرحلة الانتقال بنفس الطريقة التي يعاملهم بها بعد أن وصل نضجهم إلى مرحلته الأخيرة ، إنه منهج يتدرج بالأحكام حسب تقدم القدرة على الفهم والاستجابة ، حتى يكون الإنسان رقيبا على نفسه [1] يحترم التشريع بوازع داخلي قبل الوازع الخارجي ، وهذا هو مناط الفرق بين التشريعات الالهية ، والتشريعات الوضعية .

---

(1) مدخل إلى القرآن الكريم ص 161 .

الفصل الثالث

«أسباب النزول»

إذا كان علم المكي والمدني يعين على تفسير القرآن الكريم تفسيرا صحيحا ؛ لأنه يلقي أضواء على تاريخ الآيات ومواطن نزولها ، فإن علم أسباب النزول يعد من أهم العلوم القرآنية للمفسر ؛ لأنه يحول دون الفهم الخاطىء والتأويل الباطل ، وكأين من آية إذا شرحت دون معرفة سبب نزولها فإن تفسيرها لا يسلم من الاضطراب أو التناقض مع غيرها من الآيات .

والقرآن كتاب الله المحكم لا يعرف تعارضا أو تناقضا بين آياته ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وبالاضافة إلى أهمية أسباب النزول في معرفة الظروف التي واكبت الآيات عند الوحي بها ، وأثر هذا في الوقوف عل معناها الصحيح فإن هذه المعرفة تلقي أضواء كاشفة على اعجاز القرآن ؛ لأن نزول بعض الآيات وفق أسباب خاصة هو لون من مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وهذه المطابقة هي البلاغة ،

ولكنها في القرآن اعجاز ، فبلاغة هذا الكتاب فوق كل بلاغة عرفها العرب في منظومهم ومنثورهم قبل الاسلام وبعده .

وقد ذكر صاحب البرهان لمعرفة أسباب النزول عدة فوائد ، وقد ذكر هذا ردا على من زعم أنه لا طائل من وراء دراسة هذا العلم من العلوم القرآنية ، قال : بل له فوائد :

منها : وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم .

ومنها : تخصيص الحكم عند من يرى ان العبرة بخصوص السبب .

ومنها : الوقوف على المعنى ، قال الشيخ أبو الفتح القشيري : بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز ، وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا .

ثم أورد عدة فوائد أخرى لا تخرج عن دَفع توهم أو لَبْس أو اشكال [1] .

على أن آيات الكتاب العزيز لم تنزل كلها مرتبطة بسبب خاص ، فمنه ما نزل ابتداء دون أن يكون لنزوله سبب يدعو إليه ، وإنما نزل لمحض هداية الخلق إلى الحق ـ وهو معظم

---

(1) انظر البرهان جـ 1 ص 22 .

القرآن الكريم ـ وهذا الذي نزل دون سبب يدعو إليه يتحدث غالبا عن الأخبار سواء أكانت ماضية أم كانت اخبارا بما سيكون كبعض قصص الانبياء مع قومهم ، ووصف الجنة والنار والقيامة .

ومنه آيات نزلت مرتبطة بسبب من الأسباب وهي التي تتناول غالبا الأوامر والنواهي ، أو التشريعات والتوجيه والارشاد [1] .

وسبب النزول : قد يكون سؤالا وجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو حادثة وقعت في عهده ، فتنزل الآية أو الآيات اجابة عن السؤال ، أو بيانا لحكم ما وقع من الأحداث .

وقد تنزل الآية أو الآيات عقب السؤال أو الحادثة مباشرة وقد يتأخر النزول مدة ؛ لحكمة من الحكم ، كما حدث حين سألت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين ، فقال صلى الله عليه وسلم : غدا ، ولم يستثن (أي لم يقل : إلا أن يشاء الله) فأبطأ عليه الوحي مدة ، اختلف في مقدارها ، فروي أنها ثلاثة أيام ،

---

(1) انظر من روائع القرآن ص 42 .

كما روي أنها خمسة عشر يوما وقيل غير ذلك .

ولا يعنينا هذا الاختلاف في مقدار ابطاء الوحي ، ولكن الذي يعنينا أن هذا الابطاء قد حدث ، وشق على الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك . ثم نزلت الآيات إجابة عن تلك الأسئلة ، وفي طيها يرشد الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أدب الاستثناء﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾ [1] .

والآيات التي نزلت مرتبطة بسبب من الأسباب ـ سواء أكان سؤالا أم حادثة ـ كثيرة لا مجال لحصرها وذكرها ، وتكفي الإشارة إلى طرف منها تأكيدا على أهمية معرفة أسباب النزول، وأن الجهل بها مزلقة للوقوع في خطأ فاحش ، إذ تفسر الآيات على غير وجهها الصحيح ، وتبدو وكأنها متعارضة في الدلالة مع آيات سواها .

إن من يقرأ سورة « الكافرون » دون أن يعرف سبب نزولها قد يفسرها تفسيراً ينفي مشروعية الجهاد ، وأن على المسلمين أن يقروا غيرهم على ما هم عليه من دين .

---

(1) الآية 23 ، 24 ، في سورة الكهف .

وهذا التفسير يصادم عالمية الاسلام ، ونسخه لسائر الأديان ، كما يتعارض مع آيات كثيرة تأمر بالجهاد ، وتحض على البذل والفداء ؛ اعلاء لكلمة الله .

فإذا عرف أن سبب نزول هذه السورة المكية أن المشركين في محاولة منهم لاحتواء الرسول صلى الله عليه وسلم عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه يوما على أن يعبد آلهتهم يوما فنزلت السورة تعلن في جلاء الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ، وأنه لا التقاء بينهما بحال من الأحوال .

إذا عرف هذا فإنه لا يذهب في تفسيره لها مذهبا مضطربا أو متعارضا مع غيرها من الآيات [1] .

وروي ان مروان بن الحكم أشكل عليه معنى قوله تعالى : ﴿ لا تَحْسَبنَّ الذين يَفْرحون بما أتَوْا ويُحبُّون أن يُحْمدوا بما لم يَفْعلُوا فلا تحْسَبنَّهم بمفازَةٍ من العذَاب ولَهم عذابٌ أليم ﴾ [2] وقال : لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبنَّ أجمعون . وبقي في اشكاله حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل

---

(1) انظر أسباب النزول للواحدي ص 505 .

(2) الآية 188 في سورة آل عمران .

الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوه بذلك إليه (أي طلبوا منه أن يحمدهم على ما فعلوا) وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه .

وبهذا التوضيح لسبب نزول الآية فهمها مروان على وجهها الصحيح [1] .

وحكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان : الخمر مباحة ، ويحتجان بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ على الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [2] .. ولو عرفا سبب نزول هذه الآية لما قالا ذلك ، فقد روي أنه لما نزل تحريم الخمر قال أناس : كيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر ، وهي رجس ، أو كيف باخوانهم الذين ماتوا وهي في بطونهم ، وقد أخبرنا الله أنها رجس فأنزل الله تلك الآية ؛ لبيان أن هؤلاء الذين ماتوا وشربوا الخمر قبل تحريمها لا جناح عليهم [3] .

(1) انظر أسباب النزول للواحدي ص 132 .
(2) الآية 93 في سورة المائدة .
(3) انظر البرهان حـ 1 ص 28 .

وروي أن أبيّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط كانا متحالفين ، وكان عقبة لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما فدعا إليه أشراف قومه ، وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فدعا الناس ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعامه ، فلما قُرِّب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله ، فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه ، وكان أبي بن خلف غائبا فلما أخبر بقصته قال : صبأت يا عقبة ؟ فقال : والله ما صبأت ، ولكن دخل علي رجل فأبَى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له ،فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت له وطعم . فقال أبي : ما أنا بالذي أرضى عنك أبدا إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ عنقه ، ففعل ذلك عقبة ، فأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فقتل عقبة يوم بدر صبْراً . وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد في المبارزة ،

فأنزل الله تعالى فيهما قوله تعالى : ﴿ ويَوْمَ يَعَضُّ الظالمُ على يديه يقول يا ليْتَني اتخذت مع الرسول سَبيلاً . يا ويْلَتي لَيْتني لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضَلَّني عن الذكر بعد إذْ جاءني وكان الشيطانُ للانسان خَذُولاً ﴾ [1] .

وقال الضحاك : لما بزق عقبة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد بزاقه في وجهه فتشعب شعبتين ، فأحرق خديه ، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت [2] .

وروى الامام البخاري أن عروة بن الزبير قال : سألت عائشة رضي الله عنها فقلت لها : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يَطوف بهما ﴾[3] فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفا والمروة ، قالت : بئسما قلت يا ابن أختي ، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت : لا جناح عليه ألا يطوف بهما ، ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل فكان من أهل يتحرج أن

---

(1) الآية : 27 — 29 من سورة الفرقان .
(2) أسباب النزول ص 347 .
(3) الآية 158 في سورة البقرة .

يطوف بين الصفا والمروة ، فلما أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله . . . الآية** ﴾ .

فعروة قد توهم أن الطواف بين الصفا والمروة ليس مطلوبا أو مفروضا ، وأنه لا حرج على من حج أو اعتمر ولم يطف بينهما ، وكان مرد ذلك التوهم إلى عدم معرفة سبب النزول ، وقد أوضح هذا السبب أن الآية جاءت ردا على تحرج المسلمين في الطواف ، لما علق في أذهانهم من مواريث الجاهلية ، وليست الغاء لفرضية هذا الطواف [1] .

من هذا الذي ذكرت تبدو أهمية معرفة أسباب النزول لمن يريد أن يفسر القرآن دون خطأ ، قال أبو الفتح القشيري (702 هـ) : « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز ، وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا » [2] .

وقال الامام ابن تيمية (ت : 728 هـ) معرفة أسباب

---

(1) انظر أسباب النزول للواحدي ص 41 .

(2) البرهان حـ 1 ص 22 .

النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب [1] .

وعلل الواحدي في مقدمة كتابه « أسباب نزول القرآن » سر إقدامه على تأليف هذا الكتاب فقال بعد أن أشار إلى كثرة علوم القرآن : فآل الأمر بنا إلى إفادة المبتدئين بعلوم الكتاب إبانة ما أنزل فيه من الأسباب ؛ إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها ، وأولى ما تصرف العناية إليها ؛ لامتناع معرفة تفسير الآية وقصْدِ سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها .

ولأهمية هذه العلاقة الوثيقة بين معرفة أسباب النزول وتفسير كتاب الله أفرد العلماء قديما وحديثا هذا الفن أو العلم بالتأليف وممن صنف فيه قديما علي بن المديني شيخ البخارى (ت 234 هـ) ، وعلي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت 468 هـ) والحافظ بن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) وجلال الدين السيوطي (ت 911 .هـ) .

وقد أجمع كل من كتب في أسباب النزول على أنه لا يحل القول في هذه الأسباب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، فالنقل الصحيح هو المعول

---

(1) الاتقان جـ 1 ص 83 .

عليه في هذا العلم .

وهم إلى هذا وضعوا ضوابط الرواية التي تحدد السبب الذي يعتد به ، وتحدثوا أيضا عن الآيات التي نزلت لسبب واحد ، والآيات التي تعددت أسباب نزولها ، والعلاقة بين عموم اللفظ وخصوص السبب [1] ، وسوى هذا من المباحث التي ألمت بهذا العلم من جميع أقطاره ، وكان من بينها ما يدخل في صميم علم أصول الفقه . . .

---

(1) انظر البرهان حـ 1 ص 29 — 33 .

الفصل الرابع

« الناسخ والمنسوخ »

لقي علم الناسخ والمنسوخ من العلماء عناية خاصة ، فقد اهتم به المفسرون والأصوليون اهتماما كبيرا ، وأفرد له المؤلفون في علوم القرآن بابا في كتبهم ، كما عكف بعض العلماء والدارسين على جمع ما تناقله الرواة من آثار في النسخ ليودعوها كتبا ألفوها ، وأطلقوا عليها اسما هو : « الناسخ والمنسوخ » أو ما يدور في فلكه ، ومع كثرة المؤلفين في هذا الموضوع فإن الكتب التي وصلتنا فيه قليلة .

ويرجع هذا الاهتمام بموضوع النسخ إلى أنه يتعلق بالأحكام الشرعية وما نسخ منها ، وهو أمر يجب أن يعرفه كل باحث يتصدى لدراسة الشريعة واستنباط الأحكام الفقهية .

وإن من يحاول أن يتتبع مدلول النسخ لدى علماء الأصول وغيرهم عبر تاريخ الفكر الاسلامي ، وبخاصة في عصر الازدهار والتألق والانتاج العلمي الغزير يلاحظ أن هذا المدلول قد تطور من زمن إلى آخر ، وأن الظروف البيئية

والفكرية لعبت دورا مهما لدى بعض العلماء في تحديد مدلول النسخ ، وأن الاختلاف بينهم في تحديد هذا المدلول نجم عنه كثرة دعاوى النسخ كثرة مذهلة ، واعتبار بعض الآيات منسوخة في رأي بعض المؤلفين ، غير كذلك في رأي البعض الآخر منهم[1] .

إن تعريف النسخ لدى كثير من العلماء لم يسلم من الخلط بين حقيقته وبين بعض أساليب البيان التي قد تشتبه به كالتخصيص والتقييد والتفسير ، ومن ثم كان معظم ما اعتبر منسوخا لا يعدو ما فيه أن يكون تخصيصا أو تقييداً ، أو بيانا لمبهم ، أو تفصيلا لمجمل ، ونحو هذا مما يدخل في باب بيان المراد بالنص ، ولا يتجاوز هذا إلى رفع حكم النص بعد أن يكون ثابتا .

النسخ لغة واصطلاحا :

للنسخ من الناحية اللغوية عدة معان : منها الازالة والابطال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَيَنْسَخُ الله ما يُلْقي

---

(1) انظر النسخ في القرآن الكريم للدكتور مصطفى زيد ، ومجلة « المرجع » وهي مجلة فصلية تصدرها جمعية قدماء الزيتونيين العدد الأول ابريل سنة 1982 .

الشيطان ثم يُحْكِمُ الله آياته ﴾ [1]، ويقال : نسخت الشمس الظل ، ونسخ الشيب الشباب ، ونسخت الريح آثار القوم ؛ بمعنى عفت عليها وأزالتها ، ومن تلك المعاني أيضا النقل من مكان إلى مكان ، ومنه : نسخت الكتاب : إذا نقلت ما فيه حاكيا للفظه وخطه .

وتناسخ الأشياء : تداولها فيكون بعضها مكان بعض ، ومنه تناسخ الدول والأزمنة ؛ أي انقراضها ومجيء سواها بعدها .

والتناسخ في الميراث : موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم[2] .

وأما تعريف النسخ اصطلاحا فقد اختلف فيه العلماء ، ومرد هذا الاختلاف ـ كما أشرت آنفا ـ إلى الخلط بين حقيقة النسخ ، وما قد يشتبه به من أساليب البيان ، ومن ثم كان التعريف الذي ينص على أن النسخ هو «.رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر » هو أصح التعاريف وأولاها بالقبول ؛

---

(1) الآية 52 في سورة الحج .
(2) انظر الاتقان حـ 3 ص 59 ، وارشاد الفحول للشوكاني ص 183 ط الحلبي .

لأنه حَـدَّد مدلول النسخ تحديدا دقيقا .

فإذا ورد نص شرعي وعمل به ، ثم ورد بعد العمل به نص آخر يرفع حكم النص الأول في كل ما يتناوله أو في بعضه سمى هذا الرفع نسخا وسمى النص الثاني ناسخا ، والنص الأول منسوخا [1] .

إن هذا التعريف للنسخ أصبح هو المعول عليه في تحديد مدلوله عند المتأخرين ؛ لأنه يلتقي مع المعنى اللغوي للنسخ الذي هو الرفع والإزالة ، سواء إلى بدل أو إلى غير بدل ، كما أنه يفصح عن أن الناسخ هو الشارع ، وأن مجال النسخ هو الأحكام الشرعية ، أي الأوامر والنواهي ، أما الأخبار فليست مجالا للنسخ ، فالله تبارك وتعالى لا يحكي خبرا ثم ينقضه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وتشترك آيات الوعيد والتهديد مع آيات الأخبار في حتمية الوقوع وإن خالفتها ـ غالبا ـ في زمانه ، ومن ثم تشترك معها في عدم قبولها للنسخ بحال .

حكم النسخ .

تحدث القرآن الكريم عن النسخ حديثا صريحا في بعض

---

(1) أصول الفقه الاسلامي للشيخ زكي الدين شعبان ص 396 .

آياته مثل قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ [1] .

وأشارت آيات أخرى إلى أن هذا القرآن من عند الله الذي يمحو ما يشاء ويثبت ، ويرفع حكما ويبدل آخر ، من غير أن يكون لأحد من خلقه عمل في ذلك ولا شأن حتى ولا خاتم النبيين نفسه [2] .

وفضلا عما جاء في الكتاب العزيز تصريحا أو تلميحا عن النسخ تحدثت عنه السنة النبوية ، فقد ورد فيها الاذن بزيارة القبور بعد النهي عنها ، وذهب من يرى أن السنة المتواترة تنسخ القرآن إلى أن بعض أحكامه نسختها تلك السنة [3] .

ولهذا اتفقت كلمة المسلمين على أن النسخ جائز عقلا ؛ لأنه لا يترتب على وقوعه محال ، كما أنه واقع سمعا ؛ فقد نسخت الشريعة الاسلامية ما سبقها من الشرائع ، ونسخت بعض أحكام القرآن أحكاما وقعت في القرآن ذاته ، وأحكاما ثبتت بالسنة ، كما نسخت السنة المتواترة بعض أحكام القرآن

---

(1) الآية 106 في سورة البقرة .
(2) مباحث في علوم القرآن ص 259 .
(3) انظر إرشاد الفحول ص 191 .

لدى من يرى ذلك[1] .

وقد شذ عن اجماع المسلمين في جواز النسخ ووقوعه أبومسلم الاصفهاني (ت 322 هـ) ، فقد نقل عنه أنه قال بجواز النسخ ولكنه ينكر وقوعه ، وقد اتهمه الإمام الشوكاني[2] (ت 1255 هـ) بالجهل الفظيع بالشريعة المحمدية والضروريات الدينية بسبب ذلك .

وتناول مذهب أبي مسلم بعض المعاصرين بالدراسة العلمية وانتهى إلى أن هذا المذهب قام على أدلة واهية لا تصمد أمام النقد وأن أبا مسلم قد ذهب في تأويل الآيات القرآنية الصريحة في النسخ مذهبا تأباه طبيعة اللغة ، ومعاني الآيات وسياقها[3] . ولليهود موقف من النسخ تجدر الإشارة إليه ؛ لأنه يهتم بالنسخ بين الشرائع ، وذلك أن فرق اليهود وان

(1) إن النصوص الناسخة والمنسوخة لا بد أن تكون متماثلة في القوة ، والسنة متواترة أو غير متواترة لدى بعض العلماء ليست في قوة القرآن فلا ينسخ بها .

(2) انظر إرشاد الفحول ص 185 .

(3) انظر النسخ في القرآن الكريم الفصل الرابع من الباب الأول . ومع هذا وجد مذهب أبي مسلم أنصارا له في العصر الحاضر ، فقد ظهرت بعض المؤلفات التي تنكر وقوع النسخ في القرآن ، ومنها دراسة تحت عنوان « لا نسخ في القرآن » للدكتور أحمد حجازي السقا دار الفكر العربي بالقاهرة .

تباينت آراؤها بعض التباين حول فكرة النسخ ، وذهاب بعضها إلى إنكار النسخ ؛ ظنا أنه بداء[1] ـ متفقون على شيء واحد : هو أن الشريعة الاسلامية لم تنسخ الشريعة اليهودية ، ولا مراء في أن هذا تعصب ومكابرة ، وهو أمر ليس غريبا على اليهود في الماضي والحاضر .

حكمة النسخ :

ما دام النسخ مرجعه إلى الله فهو وحده الذي يثبت ويمحو ، ويُحكم الآيات وينسخها فإنه سبحانه عليم بعباده رحيم بهم ، لا يفرض عليهم إلا ما فيه خيرهم وسعادتهم فإذا نسخ شريعة أو حكما من الأحكام أتى بأخرى أو بحكم آخر يحقق الخير والفلاح والسعادة ، ورحم الله الإمام الشافعي (ت 204 هـ) حين قال : إن الله خلق الخلق لما سبق في علمه ، مما أراد بخلقهم وبهم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، وأنزل عليهم الكتاب تبيانا لكل شيء ، وهدى

---

(1) البداء يعني أن الله ـ تعالى عن ذلك ـ يرى الرأي ثم يبدو له غيره ، فكأنه كان يجهل ما ظهر له ، ومن ثم لجأ بعض اليهود إلى انكار النسخ كما قال بهذا بعض الباحثين المسلمين قديما وحديثا ؛ ويرد على هذا بأن الله يعلم الناسخ والمنسوخ أزلا من قبل أن يشرعها لعباده وليس النسخ سوى اظهاره تعالى ما علم لعباده لا ظهور ذلك له . (وانظر مناهل العرفان جـ 2 ص 78) .

ورحمة ، وفرض فيه فرائض أثبتها وأخرى نسخها ؛ رحمة لخلقه ، بالتخفيف عنهم ، وبالتوسعة عليهم ؛ زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه ، وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم جنته ، والنجاة من عذابه ، فعمتهم رحمته فيما أثبت ونسخ ، فله الحمد على نعمه »[1] .

والنسخ وإن كان رحمة وتوسعة فهو أيضا لون من ألوان التدرج في التشريع وهو يعد أنجع أساليب التربية والتوجيه؛ لتظل النفوس مستقيمة على طريق بارئها ، منيبة إليه في كل ما يأمر به وينهى عنه .

أنواع النسخ :

تحدث العلماء عن هذه الانواع فأكثروا[2] منها ، ولكن الرأي المعول عليها أنها نوعان فحسب ، وما دون ذلك فتكلف ولا يتحقق فيها مفهوم النسخ ، وهذان النوعان هما :

أ ـ ما نسخ حكمه ونظمه معا ، فيروى أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة طولا ، ثم نسخ أغلبها حكما

---

(1) النسخ في القرآن الكريم ، الفصل الرابع من الباب الأول .
(2) انظر ارشاد الفحول ص 189 .

وتلاوة ، فبقيت على ما هي عليه الآن[1] .

ب ـ ما نسخ حكمه وبقي نظمه ، وهذا النوع هو الذي فيه الكتب المؤلفة ، وهو على الحقيقة قليل جدا ، وإن أكثر الناس من تعداد الآيات فيه كما يقول السيوطي[2] .

ومن أمثلة هذا النوع الذي نسخ حكمه وبقيت تلاوته ، ما جاء عن عقوبة الزنا فقد كانت أولا لا تعدو الحبس في البيوت للنساء ، والايذاء بالقول للرجال عملا بقول الله عز وجل : ﴿ **واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا واصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيماً** ﴾[3] ثم جعلها الله بعد ذلك الرجم للمحصن والجلد للبكر ، أما الجلد فإنه ثابت بقوله تعالى : ﴿ **الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾[4] .

---

(1) انظر مجلة « الهلال » عدد ديسمبر سنة 1970 ص 151 .
(2) الاتقان جـ 3 ص 63 .
(3) الآية 15 ، 16 في سورة النساء .
(4) الآية الثانية في سورة النور .

أما الرجم فإنه ثابت بالسنة القولية والعملية[1] والاجماع . وما يزعمه البعض من أن هناك نوعا ثالثا هو منسوخ التلاوة باقي الحكم فهو مجرد فرض لم يتحقق في واقعة واحدة ، وما يحتج به بعضهم من أن آية الرجم قد نسخت تلاوتها وبقي حكمها وهي : « **الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة** » يرد عليه بأنه لا معنى لنسخ التلاوة دون الحكم ، فما هي المصلحة في رفع آية من القرآن مع بقاء حكمها ، فضلا عن أن هذا النص لا يحمل خصائص القرآن من حيث دقته وروعته واعجازه ، فكلمة البتة لم ترد في الكتاب العزيز فليست مفردة قرآنية ، واستعملت هنا كلمة الشيخ والشيخة بقصد الرجل المتزوج والمرأة المتزوجة ، وهو استعمال فيه تكلف ، فالشيخ في اللغة هو الطاعن في السن ولا يلزم أن يكون متزوجا ، كما أن المتزوج لا يلزم أن يكون شيخا ، بل كثيرا ما يكون شابا ، لقد عبر القرآن عن الرجل المتزوج والمرأة المتزوجة بالمحصن والمحصنة ، أما كلمة شيخ فاستعمالها في القرآن محدد بكبر السن ، وقد وردت في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع وكلها لا تخرج عن الحديث عن كبر

---

(1) انظر أصول الفقه الاسلامي للشيخ زكي الدين شعبان ص 399 .

السن[1] ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قالت يا ويلتي أألِدُ وانا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا الشيء عجيب ﴾[2] .

فهـذا النص إذن ليس بآية قرآنية ، ومـن ثم لا يكون هناك نوع ثالث من أنواع النسخ التي يعتد بها ، وهـو الـذي نسخت تلاوته وبقي حكمه ، ويظل النوعان اللذان تحدثـت عنهما هما فقط المعول عليهما في النسخ ، وإن كان النوع الثاني وهو الذي نسخ فيه الحكم دون التلاوة هو الذي حظي بالدراسة والتأليف فيه . .

وجملة القـول في النسـخ أن معرفتـه ضرورية لمن يفسر كتاب الله ، وأنه جائز عقلا وواقع سمعا ، ولا عبرة بمن شذ عن اجماع المسلمين في هذا ، وانكر وقوع النسـخ ، وإن كان الدرس الفاحص لآراء المنكرين يعطي أن الخلاف بينهم وبين الذين قالوا بجواز النسخ ووقوعه خلاف لفظي ، فهم يؤثرون أحيانا كلمة تخفيف على كلمة نسخ[3] وهو أمر لا يغير من حقيقة العدول عن حكم إلى غيره شيئا .

---

(1) انظر مجلة « الهلال » عدد ديسمبر سنة 1970 ص 151

(2) الآية 72 في سورة هود .

(3) انظر « لا نسخ في القرآن » ص 165 .

وإن كثرة دعاوى النسخ كثرة مذهلة مرجعها إلى عدم الدقة في تحديد مدلول النسخ والخلط بينه وبين بعض أساليب البيان التي قد تشتبه به وأن الاصل في القرآن هو الاحكام : أي عدم النسخ ، وأن قضايا النسخ فيه محدودة وقليلة جدا[1] ، وأن النسخ قد يكون إلى بدل أو إلى غير بدل ، وأن تكون النصوص الناسخة والمنسوخة متماثلة في القوة ، وأن يتأخر الناسخ في النزول عن المنسوخ ، وأن مجال النسخ هو الأحكام التكليفية من الأوامر والنواهي ، وان ما سوى ذلك من آيات العقائد والأخلاق والأخبار والوعد والوعيد لا يدخلها النسخ بحال ، وأن حق النسخ لله وحده ، وقد يكون بخطاب منه ، أو بسنة قولية أو فعلية ، ومن ثم كان زمان النسخ مقصورا على عصر البعثة ، وأن طريق معرفته هو النقل الصريح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن صحابي يقول : آية كذا نسخت آية كذا ، وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع من علم التاريخ ، ليعرف المتقدم والمتأخر ، ولذا لا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين ، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ، ولا معارضة بينة ؛ لأن النسخ يتضمن رفع

(1) بلغ بها بعض الباحثين بضع آيات (وانظر النسخ في القرآن الكريم الباب الرابع) .

حكم وإثبات حكم تقرر في عهده صلى الله عليه وسلم ، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد[1] .

وحكمة النسخ هي التخفيف والتيسير ومراعاة مصلحة العباد فهو مظهر من مظاهر رحمة الله بخلقه ، ومن هنا كان لونا من التدرج في التشريع ، وهو أسلوب يراعي طاقة النفوس ، ومدى استعدادها لتقبل الاحكام والمحافظة عليها بوازع داخلي ، ولذا كان أنجح أساليب التربية والتوجيه ، وغرس المبادىء والقيم في النفوس .

أما أنواع النسخ فهي على وجه الدقة نوعان : ما نسخت تلاوته وحكمه ، وهو لا يعنينا أمره ، وما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهو الذي كتب فيه المؤلفون ، وإن أسرفوا في تعداد الآيات الناسخة والمنسوخة ، حتى عددا منها ما كان الغاء لعادات الجاهلية وأعرافها الفاسدة ، ولكن المعول عليه أن وقائع النسخ في القرآن محدودة لا تتجاوز بضع آيات .

وأما ما يقال من أن هناك نوعا ثالثا نسخت تلاوته وبقي حكمه فهو مجرد فرض لا يعتديه ، وما يروى عن آية الرجم المدعاة لا أصل له ، أو هو خبر آحاد فلا يؤخذ به .

---

(1) انظر الاتقان جـ 3 ص 71 .

الفصل الخامس

«المحكم والمتشابه»

إن من يقرأ القرآن الكريم يلاحظ أن بعض آياته يصف الكتاب العزيز بأنه كله محكم ، وأنه أيضا كله متشابه ، وأن منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه .

وقد أومأت عند الكلام في أسباب النزول إلى أن القرآن الكريم لا يعرف التناقض أو الاختلاف ، ومن ثم كان وصفه بالاحكام والتشابه غير متناقض ؛ إذ لكل من الاطلاقين معنى لا يصادم الآخر ، بل يجتمعان معا حول مفهوم عام وهو اعجاز القرآن .

كذلك وصف القرآن بأن بعضه محكم وبعضه متشابه لا يتعارض مع هذين الاطلاقين ؛ لأن الاحكام والتشابه هنا غيرهما فيما سلف .

أما أن القرآن كله محكم فيشير إلى هذا قوله تعالى :
﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم

خبير ﴾[1] .

ولما كان للإحكام معان متعددة لغة واصطلاحا ، وبعض هذه المعاني تصلح في مكان لا تصلح فيه المعاني الأخرى ـ ولكل كلمة مع صاحبتها مقام ـ لما كان الأمر كذلك حُمِل الإحكام في الآية على معنى الاتقان قال صاحب القاموس : أحكم الأمر أتقنه ومنعه عن الفساد .

فالقرآن كله محكم في صياغته ومعانيه ، أي متقن لا يلحقه نقض واختلاف ، أو دخل أو خلل أو باطل ، فلا تفاوت فيه في النسق والاعجاز ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إنه كالبناء المشيد المحكم المُرَصف ، يتحدى الزمن ، ولا ينتابه تصدع ولا وهن ، ولا يتطرق إليه خلل لفظي ولا معنوي [2] .

وأما أن القرآن كله متشابه فقد جاء هذا في قوله تعالى : ﴿ الله نَزَّل أحسن الحديث كتاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُ منه جلودُ الذين يَخْشون ربَّهم ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله ، ذلك هُدَى الله يَهْدَى به من يَشاء ومن

(1) الآية : 1 في سورة هود .
(2) انظر دراسات قرآنية ص 180 .

يُضْلِل الله فما له من هاد ﴾[1] .

ومادة التشابه تدل على المشاركة في المماثلة والمشاكلة المؤدية إلى الالتباس غالبا ، وحُمل التشابه في الآية على معنى المماثلة ، فآيات القرآن يماثل بعضها بعضا في البلاغة والهداية ، ويصدق بعضها بعضا ، فلا خلاف ولا تناقض ، إنها كلها يشبه بعضها بعضا في الحق والاحكام والاتقان ، وبلوغ حد الاعجاز ، ولا سبيل إلى التفاضل بينها في هذا ، ومن هنا كان القرآن الكريم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

والإحكام والتشابه بهذا الاطلاق لم يدرس كعلم من علوم القرآن ، وإنما درس باطلاقه الثالث ، وهو أن القرآن بعضه محكم وبعضه متشابه ، وقد تحدثت الآية السابعة في سورة آل عمران عن هذا الاطلاق : ﴿ هو الذي أنْزلَ عليك الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَمات هنّ أمُّ الكتاب وأُخَرُ مُتَشَابهات ، فأما الَّذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعون ما تَشَابه منه ابْتغاء الفِتْنَةِ وابْتَغاءَ تأويلِه ، وما يعْلمُ تأويلَه إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من

(1) الآية 23 في سورة الزمر .

عند ربنا . وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ .

هـذه الآية الكريمـة كانـت منطلـق البحـث والدراسـة للمحكم والمتشابه بالمعنى الاصطلاحي ، وقـد كثـرت أقـوال العلماء في تحديد المقصود بكل من المحكم والمتشابه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تعددت آراؤهم حول حق الراسخين في العلم في بحث المتشابه ومحاولة الكشف عن معناه .

وإذا كان المحكم في الآية يقابل المتشابه فإنـه يطلـق في الاصطلاح أيضا على ما يقابل المنسوخ ، فالحكم المحكم هو الذي لم يتطرق اليه النسخ والالغاء ، والآية المحكمة هي التي لم ينسخ تلاوتها أو موضوعها ، وقد سبق الـكلام في هذا في الفصل الرابع .

ولا مجال لسرد كل ما قاله العلماء في بيان المحكم والمتشابه بالمعنى الاصطلاحي ، فقد اختلفوا في هذا على أقـوال كثـيرة منها ما أورده السيوطي في كتابيه[1] « معترك الأقران في إعجاز القرآن » و« الاتقان في علوم القرآن » قال : وقـد اختلف في تعيين المحكم والمتشابه على أقوال :

---

(1) انظر معترك الافران ص 137 ط دار الفكر العربي ، والاتقان جـ 3 ص 3 ت محمد أبو الفضل ابراهيم .

فقيل : المحكم ما عرف المراد منه ، إما بالظهور وإما بالتأويل ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة والحروف المقطعة في أوائل السور .

وقيل : المحكم ما وَضَحَ معناه ، والمتشابه نقيضُه .

وقيل : المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتمل أوجهاً .

وقيل : المحكم ما كان معقول المعنى ، والمتشابه بخلافه ، كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان .

وقيل : المحكم ما استقل بنفسه ، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره .

وقيل : المحكم الفرائض والوعد والوعيد والمتشابه للقصص والأمثال :

آراء متقاربة :

ومع كثرة الآراء وعدم اتفاقها حول مدلول واحد للمحكم والمتشابه ، يلاحظ على تلك الآراء أنها متقاربة لا متعارضة فهي تكاد تجمع على أن المحكم هو اللفظ الذي ظهر

المراد منه ، أو الذي يدل على معناه بوضوح لاخفاء فيه ، والمتشابه هو الذي يخلو من الدلالة الراجحة على معناه ، أو ما احتاج فهمه إلى تأويل ، واحتمل أكثر من وجه لا يقطع على واحد منها قاطع [1] .

وينتظم المحكم بهذا المعنى جميع النصوص الدالة على حكم أساسي من قواعد الدين كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك النصوص الدالة على أمهات الفضائل كالعدل والأمانة والوفاء بالعهد ، والاحسان إلى الوالدين ، وأيضا الآيات الواردة لبيان الأحكام الشرعية العملية ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهرَ منها وما بطنَ ولا تقتلوا النفسَ التي حرمَ الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نُكلِّف نفسا إلا وسعها ، وإذا قُلْتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ،

---

(1) انظر القواعد الأصولية للاستاذ منصور الشيخ ص 36.

وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[2] .

فمثل هذه الآيات المحكمات - وهي تمثل معظم الكتاب العزيز - تقرر أحكاما في وضوح ، فهي لا تعرف الخفاء في الدلالة ، أو التعارض من حيث الظاهر ، ومن ثم لا يحتاج في فهمها إلى تأويل عقلي ، وما قد يكون بين العلماء من اختلاف في تفسيرها فمرده غالبا إلى ما صح لدى كل منهم من أثر في تفسير الآية ، وما يجنح إليه من تقدير ذاتي لبعض المسائل التي تحتمل تعدد الآراء ، ولا سيما في آيات الاحكام التكليفية الخاصة بالمعاملات .

أما المتشابه فينتظم بذلك المعنى جميع النصوص التي تحتاج إلى تفصيل أو تأويل أو يتطرق إليها لبس أو ابهام ، فهي من المشكل الذي خفيت دلالته ، وغمض معناه ويدخل في هذا الآيات التي تحدثت عن صفات الله ، والآيات التي تناولت الغيبيات والحروف المقطعة التي بدئت بها بعض السور .

---

(1) الآية 151 ، 152 في سورة الانعام .
(2) الآية 28 في سورة سبأ .

ومن تلك الآيات المتشابهات ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[1] و﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾[2] و﴿ وجاء ربك والملك صفاصفا ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ إنك لا تهتدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾[4] و﴿ من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾[5] ﴿ وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات التي تدور في فلك القضايا الغيبية ، والصفات الالهية ، والتعبير عن الارادة الانسانية ، ومدى مسؤولية الانسان عن أفعاله ، ومحاسبته على ما يصدر عنه من تصرفات .

هذه الآيات اختلف العلماء فيها ، فمن قائل إنها كالآيات المحكمات يعلم الراسخون في العلم تأويلها ، ومن قائل إنها مما استأثر الله تعالى بعلمه وأن الراسخين في العلم لا

(1) الآية 5 في سورة طه .
(2) الآية 10 في سورة الفتح .
(3) الآية 22 في سورة الفجر .
(4) الآية 56 في سورة القصص .
(5) الآية 15 في سورة الاسراء .
(6) الآية 13 ، 14 في سورة الاسراء .

سبيل إليهم للوقوف على حقيقته .

وقد كانت الواو التي جاء ذكرها قبل « الراسخون » في الآية الكريمة هي مناط الخلاف ، فالذين يرون أنها للعطف يذهبون إلى أن المتشابه يعلمه الراسخون ، والذين يرون أنها للاستئناف يذهبون إلى أن هؤلاء الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه .

وقد جاء في الاتقان أن الذين[1] يرون أن الواو للعطف وأن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه عدد قليل ، وأن مذهب الأكثرين هو أن الواو للاستئناف ، وأن الراسخين في العلم يؤمنون بالمتشابه ولا يعلمون تأويله ويقولون : آمنا به كل من عند ربنا .

ولكن إذا كان المحكم أم الكتاب بنص الآية ؛ أي معظمه وأصله الذي يرجع إليه ما عداه ، وإذا كان من القواعد المقررة في علم التفسير أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، وأن السنة النبوية تبين ما يحتاج من الفاظ القرآن إلى بيان ، إذا كان الأمر كذلك ، وأدركنا أن العربية كما تعرف الحقيقة اللغوية تعرف المجاز والكناية وغيرها من فنون البلاغة فإن أمر المتشابه

(1) حـ 3 ص 5 .

لا يصبح مشكلة ولا معضلة ، ويمكن محاولة تفسيره والوقوف على بعض أسراره .

لقد أنزل الله القرآن كتابا مباركا ؛ للتدبر والتذكر ، وليس من المعقول أو المقبول أن يكون بعضه لا قدرة لذوي الألباب على التدبر فيه والتذكر به ؛ لأنه ـ كما يقول الامام النووي (ت 676 هـ) يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته [1] .

ولا علاقة لهذا بالأمور الغيبية التي لا يطلع الله عليها أحداً من خلقه إلا من ارتضى من رسول ، كقيام الساعة وانزال الغيث وعلم ما في الأرحام وما يجري للانسان في غده ، وفي أي مكان يأتيه أجله ، فهذه الأمور وغيرها تعبدنا الله بالايمان بها دون البحث عنها من حيث الزمان أو الكيفية أو الماهية .

وقد قسم الراغب الاصفهاني [2] المتشابه من حيث امكان الوقوف على معناه إلى ثلاثة أضرب : « ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة ونحو ذلك ، وضرب للانسان سبيل إلى معرفته كالالفاظ الغـريبة . . .

---

(1) انظر الاتقان جـ 3 ص 5 .

(2) توفي الاصفهاني سنة 502 هـ .

وضرب متردد بين الأمرين يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ، ويخفى على من دونهم ، وهو المشار اليه بقوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « اللهم فقه في الدين وعلم التأويل »[1] .

إن الآيات التي تتحدث عن صفات الله والتي عدت من المتشابه وأفردها بعض العلماء بالتصنيف وقد أوردت بعضها فيما سبق ، وكذلك الآيات التي تتحدث عن الهدى والضلال ، وتبدو متعارضة من حيث الظاهر يمكن تأويلها بانضمام بعضها إلى بعض وتفسيرها في حدود القواعد اللغوية بما لا يتعارض مع الأصول العامة للعقيدة الاسلامية ، وأهمها تنزيه الله عن المشابهة لخلقه ، وعدله المطلق ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

لقد قسم الله آيات القرآن إلى محكم ومتشابه وأخبر عن المحكمات أنها أم الكتاب ؛ لأن اليها ترد المتشابهات ، وهي التي تعتمد في فهم مراد الله من كل ما تعبد خلقه به من معرفته وتصديق رسله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وبهذا الاعتار كانت أمهات ، ثم أخبر عن الذين في قلوبهم زيغ أنهم هم الذين يتبعون ما تشابه منه ، ومعنى ذلك أن من لم يكن على

(1) الاتقان جـ 3 ص 11 .

يقين من المحكمات وفي قلبه شك واسترابة كانت راحته في تتبع المشكلات المتشابهات ، ومراد الشارع منها التقدم إلى فهم المحكمات وتقديم الأمهات ، حتى إذا حصل اليقين ، ورسخ العلم لم يخطىء في تأويل المتشابه ، ولم يستشكل عليه أمره ، ومراد هذا الذي في قلبه زيغ التقدم إلى المشكلات وفهم المتشابه قبل فهم الأمهات وهو عكس العقل والمعتاد والمشروع [1] .

إن آية آل عمران بينت أن الذين في قلوبهم زيغ ؛ أي انحراف وميل عن الحق هم الذين يلجأون إلى المتشابه يفسرونه ، لا طلبا للهوى ، ولكن ابتغاء الفتنة والفساد ، ثم قصرت الآية معرفة المتشابه على الحق تبارك وتعالى ، وورد ذكر الراسخين بعد ذلك بالواو التي اختلف في تفسيرها ، بيد أنه لو لم يكن لذكر الراسخين في العلم حظ في تأويل المتشابه لكانوا سواء والجهلاء ، ولما كان للحديث عنهم معنى .

قال مجاهد رحمه الله في قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به . . » يعلمونه ويقولون آمنا به، ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ من المتشابه إلا أن يقولوا آمنا لم يكن لهم فضل على الجاهل ؛ لأن

---

(1) الاتقان حـ 3 ص 9 .

الكل قائلون بذلك ، ونحن لم نر المفسرين إلى هذه الغاية توقفوا عن شيء من القرآن ، فقالوا : هو متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمروه على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة[1] .

على أن هذه الآية التي فتحت للعلماء مجال القول في المحكم والمتشابه بالمعنى الاصطلاحي تشير إلى أن تفسير القرآن ليس أمراً هينا ، وأن هناك درجات في فهم هذا الكتاب الخالد ، أدناها ما يلم به عامة الناس من فهم مضمون الآيات على وجه الاجمال ، وإن لم يحيطوا علما بمعاني المفردات من الناحية اللغوية ، أو تشغل بالهم القضايا الخلافية والجزئية ، ولعل هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ﴾[2] .

وأعلا درجات التفسير تلك التي لا يبلغها إلا الراسخون في العلم ، أولئك الذين أوتوا نصيبا وافرا منه ، وكلمة العلم يتسع مدلولها ليشمل كل علم يعين على فهم كتاب الله ، وادراك اعجازه ، أو طرف منه .

وهذا يجعل مهمة التفسير بمعناه الدقيق عسيرة لا يقدم

---

(1) البرهان حـ 2 ص 73 .
(2) الآية : 17 في سورة القمر .

عليها إلا مَن آنس مِن نفسه طاقة عليها بتمكنه من مختلف العلوم التي تضيء له طريق الصواب في تفسير كلام الله .

ومن هنا كان اشتمال القرآن على المتشابه دعوة للحث على النظر الموجب للعلم بغوامض القرآن ، والبحث عن دقائقه[1] ، وهذا النظر الموجب للعلم دعوة للبحث والدرس الشامل الذي يساعد على كشف بعض أسرار كتاب الله ، وبعض أسرار ما خلق الله في هذا الكون الفسيح ، ليزداد المؤمنون إيمانا ، وليكونوا دائماً أصحاب حجة دامغة لا تقف امامها شبهات المحرفين وأوهام الضالين .

---

(1) انظر مقدمتان في علوم القرآن ص 179 ، والبرهان جـ 2 ص 17 ، والاتقان جـ 3 ص 30 .

الفصل السادس

« الاعجـــــاز »

اقتضت سنة الله تعـالى أن يكون لكل نبـي من الأنبياء معجزة تثبت أنه نبي وليس بدعي ، وكانـت معجـزات جميع الأنبياء الذين بعثـوا قبـل محمـد صلى الله عليه وسلـم تتصف بالمادية ؛ فهي محسوسة تشاهد وترى ، كما تتصف بارتباطهـا بشخصية الرسول ، فوجودها والتحدي بها مرتبط بحياة النبي الذي ظهرت على يديه ، فإذا توفاه الله انتهت هذه المعجزة ، وأصبحت خبرا يروى وأثرا ينقل ، وتعد حجيتها خاصة بمن شاهدوها ، ولـم يصدقـوا بهـا مثـل معجـزات موسى وعيسى عليهما السلام .

أما معجزة محمد صلى الله عليه وسلم الكبرى فليسـت مادية أو شخصية ، وهي هذا القرآن الكريم ، فهـو معجـزة عقلية ، وليست مرتبطة بحياة الرسول ، بل هي خالدة إلى يوم الدين والتحدي بها قائم في كل عصر ومكان ، وهذا أوضـح برهان على عالمية الاسلام وأنه خاتم الرسالات الالهية .

واعجاز القرآن معناه عجز الانس والجن عن الاتيان بمثله ﴿ **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[1] وإذا ثبت عجز البشر وغيرهم عن الاتيان بمثل هذا القرآن كان ذلك دليلا على أن هذا الكتاب العزيز ليس من جنس ما يقوله الناس ، وأنه كلام رب العالمين ، فهو من ثم آية الله الخالدة التي أنزلها على خاتم أنبيائه ؛ لتكون دليل صدق على رسالته ونبوته .

ولقد تحدى القرآن العرب ، وهم أرباب الفصاحة والبيان وفرسان الكلام والقريض أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا مع حرصهم الشديد على ذلك ؛ مناوأة لهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي سفه أحلام العرب ؛ لعكوفهم على عبادة آلهة من الحجر والخشب ، وسوى ذلك من ألوان الوثنية والجاهلية .

إن القرآن الكريم سيظل إلى يوم الدين المعجزة الفريدة التي تدعو البشرية للتي هي أقوم ، وتتحدى كل من يعرض عنها أو يحاول أن يطعن في اعجازها أن يأتي بمثلها ، وكلما تقدم العلم الانساني كشف عن بعض وجوه اعجاز القرآن ،

---

(1) الآية 88 في سورة الاسراء .

وأكد أن هذا الدستور الالهي هو وحده الكفيل بتحقيق الحياة الانسانية السعيدة .

فاعجاز القرآن إذن يعني عجز الخلق عن الاتيان بمثله ، وليس هذا العجز مقصودا لذاته ، بل المقصود لازمه ، وهو اظهار أن هذا الكتاب حق ، وأن الرسول الذي جاء به رسول صدق .

ولم يفرد اعجاز القرآن بالبحث والدرس في القرن الأول والثاني ، وهذا لا يعني أن قضية الاعجاز لم تلق من المسلمين في عهد الصحابة والتابعين اهتماما ، فقد كان الاهتمام بها والبحث فيها منذ فجر الدعوة ، وإن لم يأخذ طابع الدراسة التفصيلية ، فقد فرضت هذه القضية وجودها على العرب من أول المبعث[1] ، سواء من سبق إلى الاسلام ، أو ظل على جاهليته وعناده وطغيانه ، وليس تحير المشركين من قريش في وصف القرآن وصفا ينفر الناس منه ، ولا يجعلهم يسمعون إليه ، إلا أوضح دليل على أن قضية الاعجاز فرضت نفسها على العرب في عصر البعثة .

وانتهى عصر البعثة بما شهده من صراع فكري وجهاد

(1) انظر الاعجاز البياني للقرآن الكريم ص 34 وما بعدها .

حربي وانتصار على قوى البغي والشر واعلاء لكلمة الله ، وشغل المسلمون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بحروب الردة ، ثم بالفتوحات العظيمة التي قوضت عروش الجبابرة والقياصرة ، ونشرت دين الله في المشرق والمغرب دون اكراه لأحد على الايمان ؛ لأنه لا اكراه في الدين ، ووقعت مأساة الفتنة الكبرى التي كان من أخطر آثارها تفرق المسلمين وجدالهم الفكري حول كثير من القضايا المتصلة بالعقيدة وأصولها ، ثم اتسع نطاق هذا الجدل فشمل القرآن ووجوه اعجازه ، وقد ساعد على إذكاء نار الجدل والخلاف هؤلاء الذين آمنوا بالاسلام على غير نية صادقة ، أو أسلموا ولم يؤمنوا ، وسعوا تحت ستار العلم لمقاومة مد هذا الدين وفعاليته وكانت أساليبهم الملتوية من عوامل نجاحهم في إثارة كثير من الأباطيل والشبهات التي شغلت الفكر الاسلامي ردحا طويلا من الزمن ، بل ما زالت تشغل هذا الفكر حتى الآن .

وعلى الرغم من هذا الصراع الفكري بين الاسلام والقوى المضادة في القرن الأول والثاني ازدهرت الحركة العلمية وآتت كلهاتأليفا وترجمة، ويعد ماكتبه الجاحظ (ت 255 هـ) تحت عنوان « نظم القرآن » أول مؤلف في الاعجاز ،

ولم يصلنا هذا الكتاب ، بيد أن الجاحظ أشار إليه في بعض كتبه .

ثم توالت بعد الجاحظ المؤلفات والدراسات في اعجاز القرآن ووجوه هذا الاعجاز حتى العصر الحاضر ، وانعكست ثقافة كل باحث وعالم على ما قدمه من دراسة في هذا الموضوع ، وإن كانت جميعها تدور حول قطب واحد ، وتنشد غاية واحدة ، وهي بيان ما اشتمل عليه القرآن من صور الاعجاز مع مناقشة ما أثاره أهل الأهواء من شبهات وافتراءات .

وعرفت المكتبة الاسلامية في الماضي والحاضر الكثير من الدراسات في اعجاز القرآن ، وليس من اليسير استقصاء كل ما الف في هذا العلم .

على أن هذا الذي ألف ، منه ما أفرد لهذا الفن ، ومنه ما جاء ضمن دراسات أخرى كالبلاغة والتفسير ، فالزمخشري مثلا في كشافه يقرر أنه لا بد من علم البيان والمعاني لادراك معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة لطائف حجته ، ولذلك اهتم في تفسيره هذا بالحديث عن بعض جوانب الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم .

ومع كثرة الدراسات في الإعجاز وتنوع مناهجها يلاحظ أن كل من كتب في هذا العلم يذهب إلى أن من سبقه في الكتابة لم يبلغ الغاية التي تطمح اليها النفس ، وأن قلمه كبا في بعض المواطن ، ويذكر أنه لهذا شمر عن ساعد الجد ، ليخدم كتاب الله ، وأنه تنبه إلى جديد غاب عن سواه ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن أحداً لم يقل الكلمة الأخيرة في اعجاز القرآن ، وأن كل من يتدبر ويفكر في آيات الكتاب العزيز سيجد فيها جديدا يقال ، وستنقضي الأجيال دون أن تبلغ الكمال في الكشف عن جميع وجوه اعجاز القرآن .

ويمكن من خلال ما كتب في الاعجاز القرآني قديما وحديثا حصر هذا الاعجاز في الوجوه التالية على وجه الاجمال :

أولاً : الاعجاز البياني :

ويشمل هذا الاعجاز بديع نظم القرآن وجزالة مفرداته ، ودقة تعبيره وتصويره ، ودلالة الفاظه على معانيه ، وأنه متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه .

لقد جاء الاسلوب[1] القرآني منفردا بخصائص لم يألفها

---

(1) انظر اعجاز القرآن للرافعي ، والنبأ العظيم ص 80 .

العرب في كلامهم ، فهو مباين للمعهود من ترتيب خطابهم ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، ولا يتفاوت فصاحة وجزالة وبديع تأليف ورصف بتنوع موضوعاته ، فهو كله ـ على طوله ـ درجة سواء في البلاغة ، والتشابه في البراعة والتماثل في الفصاحة والقوة ، لذلك كان نسيج وحده ، وكان معجزة الرسالة الخاتمة والدعوة العامة .

وهذا الوجه من الاعجاز هو الذي كان به التحدي[1] في عهد النبوة وسيظل إلى يوم الدين أهم وجوه الاعجاز التي تتحدى الإنس والجن ـ فما تحدى القرآن العرب أن يأتوا بشيء مما جاء به من الأخبار والتشريعات وبعض الحقائق العلمية ، وإنما تحداهم أن يأتوا بمثل نظمه وأسلوبه ، وتصرف خطابه ، وهم بما عرفوا به من اللسن والقدرة على القول وتشقيق الكلام ، عجزوا عن أن يأتوا بأقصر سورة منه مع حرصهم الشديد على ذلك ، وسحرهم البيان القرآني ، ولم يهتدوا إلى مناط هذا السحر ، وكانوا يتسللون خفية في جنح الليل لسماع تلاوة هذا القرآن لروعته وغرابته[2] ، وإن جمحت بهم حمية الجاهلية فأبوا أن يؤمنوا به .

---

(1) انظر اعجاز القرآن للباقلاني ص 48 — 72 ، والنبأ العظيم ص 79 .
(2) انظر سيرة ابن هشام حـ 1 ص 315 .

لقد كان العرب يدركون بسليقتهم اللغوية ان القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر ، وكانت تصدر عن بعضهم في لحظات الصدق النفسي ما يعبر عن هذا فيروى عن الوليد بن المغيرة أنه قال بأنه يعرف الشعر وفنونه وألوانه ، ولكن ما جاء به محمد ليس من جنس ما يقوله الشعراء ، إنه نسيج وحده ، وله خصائص وسمات لا تتوافر في أي نص أدبي آخر ، « قال عن القرآن : والله إن لقوله الذي يقوله (أي محمد) لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله [1] ، وإنه ليعلو ولا يعلى وإنه ليحطم ما تحته » [2] .

وضاق أبو جهل بما قاله الوليد في القرآن ، وحذره غضب قومه عليه ، وطلب منه أن يقول قولا آخر يرضي هؤلاء القوم ، وقال الوليد لصاحبه وقرينه في الكفر : دعني أفكر ، وبعد جهد جهيد وصراع نفسي شديد ، قال الوليد في القرآن : إن هذا إلا سحر يؤثر ، ألم تروا أنه يفرق بين الرجل وأهله والولد ووالده[3] .

---

(1) الغدق هو الماء الكثير ، والشجرة إذا كان أصلها غدقا كانت نامية مثمرة فالقرآن كالشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تأتي أكلها كثيرا .
(2) البداية والنهاية لابن كثير حـ 3 ص 90 .
(3) المصدر السابق

وفي موقف الـوليد المتنـاقض نزل قول الحـق تبـارك وتعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا. وجعلـت له مالا ممدوا. وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيدا . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعـودا . إنـه فكر وقـدر . فـقُـتِـل كيف قـدّر . ثم قُـتِـل كيف قـدّر . ثم نظـر . ثم عبس ويسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحـر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر﴾ [1] . .

وإن نظرة فاحصة في الآيات : إنه فكر وقدر . . . إلى إن هذا إلا قول البشر . . . لتصور لنا تصويرا دقيقا صادقا ما حدث بـين الـوليد ونفسـه من صراع عنيف كأقـوى ما يكون الصراع ، ففطرته اللغوية وحسه البياني يأبى عليه أن يقول غير ما قال أولاً ، غير أن خوفه من قالة السوء عنه وغضب قومه عليه ، وحرصه على الزعامة والسياسة كلها تلح عليه الحاحا بالغا في أن يقول في القرآن قولا منكرا يخالف قوله الأول[2] .

وهذا القول المنكر يؤكد أن الاعجاز البياني خلب ألباب العرب وجعلهم في حيرة من أمرهم ، فهم في صراع بين شعور

---

(1) الآيات 11 — 25 في سورة المدثر .

(2) انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للاستاذ محمد أبو شهبة ص 321 .

داخلي فطري بأن هذا الكلام نمط فريد في البيان العربي لا قدرة لهم على محاكاته ، وبين حمية الجاهلية التي دفعتهم دفعا للمكابرة والجحود والعصيان .

ثانياً : الاعجاز التشريعي :

وبقصد به [1] ما جاء به القرآن من تعاليم ومبادىء في مختلف شؤون الحياة الفردية والجماعية ، فهذه التشريعات تمتاز بملاءمتها للفطرة الانسانية ، وصلاحيتها للتطبيق في كل زمان ومكان ، وخلوها من مظاهر الاقليمية ، والأهواء البشرية كما هو واقع في القوانين الوضعية ، ولذا كانت هذه التشريعات للناس جميعا ؛ لتستقيم بها على طريق الخير والهدى ، ولتحيا في ظلها آمنة مطمئنة ، ولتتخلص بها من فوضى التجارب التشريعية التي لا تكفل للانسانية حياة كريمة تجدر بها ؛ لأنها دائما تتسم بالقصور واتباع الأهواء ، ومن هنا كانت عرضة للتغيير والنسخ والالغاء . .

لقد نشأت في تاريخ البشرية عبر عصورها المختلفة نظم وجدت مبادىء ، ولكنها اندثرت وأصبحت نسيا منسيا ؛ لأنها غير صالحة للتطبيق الدائم ، ولم تكفل للمجتمع الانساني ما

---

(1) انظر من روائع القرآن ص 158 .

يطمح إليه من أمن وسعادة ، ولكن التشريع القرآني لتفرده بما أومأت إليه آنفا من سمات ظل حيا ناميا على مر القرون والأحقاب ، وإن لم يكن الالتزام به كاملا في بعض مراحل التاريخ ، وقد اعترف المؤتمر الدولي للقانون المقارن بأن الشريعة الاسلامية تلبي حاجات العصر ، ولها ثروتها القانونية الضخمة ، وذلك في الجلسة التي عقدت يوم 7 يوليو سنة 1951 في باريس .

« إن المؤتمرين ـ وقد أبدوا الاهتمام بالمشاكل المثارة أثناء أسبوع القانون الاسلامي ، وما جرى في شأنها من مناقشات وضحت بجلاء ما لمبادىء القانون الاسلامي من قيمة لا تقبل الجدال، كما أوضحت أن تعدد المدارس والمذاهب داخل هذا النظام القانوني الكبير ، إنما تدل على ثروة من النظريات القانونية والفن البديع وكل هذا يُمكن هذا القانون من تلبية جميع الحاجيات العصرية ـ يبدون الرغبة في أن يواصل الأسبوع أعماله كل سنة ، ويكلف مكتب الأسبوع بوضع لائحة بالموضوعات التي يجب ـ عقب المناقشات التي جرت خلال الاسبوع ـ أن تكون موضع البحث أثناء الدورة القادمة ، ويرجون تأليف لجنة لوضع « قاموس » للقانون

الاسلامي من شأنه أن يسهل الاقبال على تأليف القانون الاسلامي ، وأن يكون موسوعة للمعارف القانونية الاسلامية مرتبة حسب الأساليب العصرية » .

ولا مجال لتناول التشريع القرآني بالتفصيل وبيان أوجه اعجازه وتفرده بخصائص جعلت منه أقوم تشريع للحياة ، فذلك أمر يحتاج إلى دراسة خاصة ويكفي هنا أن هذا التشريع عالج مشكلات الروح والجسد بمنهج يتسم بالوسطية ومراعاة الطاقة البشرية ، وتحري المصلحة ، وتقرير العدالة والمساواة بين الجميع .

والتشريع القرآني إلى هذا كله يحقق للإنسان سعادة الدارين فليس تطبيقه في دنيا الناس مناط الخير لهم في الحياة الدنيا فحسب ، وإنما مناط الخير لهم أيضا في الحياة الآخرة ، ومن ثم يقبل الانسان على طاعة ذلك التشريع ؛ إيمانا به وحرصا عليه ، فهو ملاذه الوحيد من كل طغيان يسلبه إرادته وكرامته وأمنه ، وملاذه أيضا الذي ينجيه من عذاب يوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وهذا ما لا تعرفه القوانين الوضعية على اختلافها .

ثالثاً : الاعجاز العلمي :

إن القرآن لم ينزل ليقـرر نظـريات وفروضـا علمية ، وإنما أنزل ، ليخرج البشرية من الظلمات إلى النور ، ومع هذا هو كتاب علم دعا إليه ، وأشار إلى بعض حقائقه التي يعجز المرء عن إدراكها وقت نزوله ، بل إنه حتى الآن مع التطـور العلمـي ، وظهـور الوسائـل العصرية للبحـث والتجربـة لم يتمكن الإنسان من الإحاطة الكاملة بما اشتمل عليه القرآن من حقائق وإشارات علمية ، ولكنها تظل آية إعجـاز ، ودعـوة للعقل الإنساني كـي يفكر ويتدبر ويزداد علما ومعرفة ؛ ليزداد ايمانا واحسـانا وخشية لبارئه .

لقد أسلم طبيب أجنبي معاصر حين ترجمـت له معانـي الآيات التي تحدثت في إيجاز بليغ عن تطور مراحل حياة الجنين في بطن أمه ، وهي قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسـان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنـا العلقـة مضـغـة فخلقنـا المضغـة عظامـا فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسـن الخالقين ﴾[1] .

---

(1) الآية 12 — 14 في سورة المؤمنون .

لقد قال لنفسه : إن محمد كان رجلا أميا ، وقد نشأ في بيئة لا تعرف من الثقافة الطبية شيئا ذا بال ، ولم يعرف العصر كله من هذه الثقافة ما يستطيع أن يدرك به شيئا عن مراحل حياة الجنين كما تحدث القرآن ، وقد عرف العلماء في العصر الحديث بعض هذه المراحل عن طريق الأجهزة العلمية ، وما عرفه هؤلاء العلماء لا يخرج عما أشار اليه القرآن ، وهذا يعني أن محمدا لم يأت بهذا الكتاب من عنده ، ولم يأخذه عن بعض معاصريه ، أو أعانه عليه قوم آخرون ، فما كان لبشر في ذلك العصر أن يصور تلك المراحل على النحو الذي جاء به الكتاب العزيز ، فمحمد إذن نبي وليس متنبئاً ، والقرآن وحي من عند الله الذي خلق الانسان وصوره فأحسن تصويره ، وليس أساطير الأولين كما زعم المشركون ، ومن ثم أسلم ذلك الطبيب ، وآمن بالنبي الأمي الذي بعثه ربه رحمة للعالمين [1] .

وقد ظهرت حديثا دراسات ومحاولات تتغيا إبراز هذا الإعجاز العلمي ، وهي محاولات طيبة واجتهادات يؤجر عليها أصحابها ، وإن لم يصاحبهم التوفيق في بعض ما ذهبوا إليه ولعل مرد ذلك إلى رغبة مخلصة في لفت نظر العالم الذي لا

---

(1) انظر لماذا أنا مسلم للاستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي .

يؤمن إلا بالتجربة والمشاهدة إلى هذا القرآن المجيد ، فهم أحيانا يحملون الآيات فوق ما تحتمل ، ويسرفون في تلمس الأدلة القرآنية لكل ظاهرة علمية تجد ، والعلم الانساني لا يعرف الاستقرار ، وما كان نظرية مسلمة منذ فترة أصبح موضع شك أو ليس بنظرية الآن .

إن تناولنا لهذا الاعجاز العلمي يجب أن يكون بحذر وعلى قدر ، حتى لا نخضع القرآن لتطور الفكر البشري ، ويكفي هذا الكتاب المعجز أنه ـ دعوة للعلم بأوسع معانيه ومختلف مجالاته ، وأنه لا يتضمن آية واحدة تشل حركة العقل أو تعوق نموها وتقدمها .

ويدخل في باب الاعجاز العلمي ما اشتمل عليه القرآن من أمور غيبية ، وما قصه من أخبار الأولين والأنبياء السابقين ، فمحمد صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يعرف الكتابة والقراءة ، ولم يثبت أنه لقي الدارسين لتاريخ الأقدمين وأخذ عنهم ، وآراء المستشرقين في هذا الموضوع ظنون وأوهام ؛ لأنهم يدعون أن محمداً صلى الله عليه وسلم أخذ عن الرهبان والأحبار ما ضمنه كتابه وهو ادعاء لا ينهض على دليل مقبول أو معقول .

إن ما جاء في القرآن الكريم من أمور غيبية ، وإشارات تاريخية وبعض الحقائق العلمية التي أدرك العلم الحديث طرفا من أسرارها آية من آيات الاعجاز ، ودلالة من دلائل صدق محمد صلى الله عليه وسلم في رسالته .

وفضلا عن كل ما سلف سلم القرآن من التناقض والتعارض والاختلاف ، وهذا مما يخالف فيه جميع كلام البشر ، ورحم الله من قال : إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده ، لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر[1] .

(1) تنسب هذه الكلمة إلى العماد الاصفهاني .

الفصل الرابع

«التفسير»

علم التفسير أهم العلوم القرآنية ، أو قطب رحاها ، فهي جميعها تفسر القرآن أو تعين على تفسيره ، وكان الأحرى أن تسمى بالعلوم التفسيرية ، بيد أن مصطلح العلوم القرآنية ذاع بين العلماء ، واتخذه بعضهم عنوانا لكتب ودراسات عرضت بالبحث لتاريخ القرآن وعلومه ، ومن ثم فلا مشاحة في هذا الاصطلاح .

وقد وردت كلمة تفسير في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾[1] ، والكلمة بمشتقاتها اللغوية تدور حول معنى الكشف والبيان ، فالتفسير هو الكشف عن المعاني القرآنية أو بيانها وايضاحها .

كذلك وردت كلمة تأويل في مقام الكشف عن المعاني القرآنية في الكتاب العزيز سبع عشرة مرة ، وهي مرادفة لكلمة التفسير في أشهر معانيها اللغوية ، قال صاحب القاموس :

---

(1) الآية 33 في سورة الفرقان .

أوّل الكلام تأويلا وتأوّله : دبَّره وقدَّره وفسَّره .

ولكن يلاحظ أن أغلب ورود كلمة تأويل في القرآن جاء في مقام يحتاج الكشف عن المعنى فيه إلى دقة فهم ونفاذ بصر وسعة ثقافة[1] كالآيات المتشابهات ، وتلك التي تتحدث عن الاحلام ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يا أيها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾[2] .

فالتأويل إذن يكاد ينصرف إلى بيان المعاني المستنبطة من النص الكريم بشرط ألا يجافي التأويل منطق اللغة ودلالة الفاظها ، ودون أن يتعارض كذلك مع تأويل آية أخرى ، وإن اختلف موضوع كل منهما ، فليس في هذا الكتاب المحكم اختلاف أو تعارض بين آياته وأحكامه .

أما التفسير فهو يتعلق بكشف المعاني المباشرة من النص المقدس دون صرف له إلى ما يمكن أن يحتمله من معنى .

ومن المفسرين من رأى أن التأويل والتفسير مترادفان ،

---

(1) انظر دراسات في القرآن الكريم للدكتور السيد احمد خليل .
(2) الآية 43 ، 44 في سورة يوسف .

وأن النسبة بينهما هي التساوي ، وليست العموم والخصوص ، فالتفسير أعم من التأويل ؛ إذ يشمل كل ألوان الكشف عن المعاني القرآنية ، على حين أن التأويل ينسحب مدلوله فقط على تلك الآيات التي تحتاج إلى دقة فهم ، ونفاذ بصر كالمتشابهات والحروف المقطعة .

كذلك ليست النسبة بين التفسير والتأويل هي المخالفة حيث كان التفسير هو القطع بأن مراد الله كذا ، والتأويل هو ترجيح أحد المحتملات بدون قطع[1] .

وشاع استعمال كلمتي التفسير والتأويل بمعنى واحد عند المتقدمين من المفسرين ، فقد روى عن مجاهد وهو تابعي مكي - وكان أعلم الناس بالتفسير - « إن العلماء يعلمون تأويله »[2] أي القرآن .

والإمام الطبري في تفسيره يردد مثل هذه العبارات : القول في تأويل قوله تعالى كذا . . . واختلف أهل التأويل في هذه الآية .

وحظى علم التفسير باهتمام خاص ، وليس هذا أمرا

---

(1) انظر مناهل العرفان جـ 1 ص 473 .
(2) المصدر السابق .

غريبا ، لأن هذا الاهتمام هو في الواقع اهتمام بكتاب الله مصدر الخير ومورد الهدى ؛ ومناط العزة والسعادة ، ومن ثم كان المقصود من علم التفسير هو تدبر القرآن ، وتفهم معانيه ومقاصده ، وتحقيق هذا في سلوك الإنسان ، ومن لم يفعل ذلك ، وكانت صلته بكتاب الله مقصورة على مجرد التلاوة أو تفهم المعاني دون عمل ، فقد ضل ضلالا بعيدا ، وكان القرآن حجة عليه .

لقد أقبل العلماء قديما وحديثا في مثابرة واخلاص يفسرون كتاب الله وما هو مخطوط من التراث التفسيري أكثر مما هو مطبوع فضلا عما فقد وسلب في تلك الحقب العصيبة التي مر بها العالم الاسلامي كحملات الصليبيين وحروب التتار ، وسنوات التخلف والركود والجمود .

كذلك ألف العلماء في تاريخ هذا العلم وعرّفوا برجاله ، بل أفرد هؤلاء بالتأليف ، فعرفت المكتبة الاسلامية طبقات المفسرين إلى جانب طبقات الفقهاء والمحدثين والنحاة والاطباء . . . الخ .

ولم يفت هؤلاء العلماء أن يكتبوا في مناهج التفسير ، والشروط التي لا بد منها لمن يرغب في تفسير كتاب الله ،

وسـوى هذا من المباحـث التـي تدور في فلك خدمــة النص القرآني الكريم وفهم معانيه .

ولا مجال هنا للكلام في كل ما يتصل بعلـم التفسـير ، وإنما هي لمحة عن هذا العلـم تومـىء في إيجـاز إلى طرف من تاريخه ومناهج أعلامه في الماضي والحاضر .

تاريخ التفسير ومناهجه :

كان العرب الـذين نزل القـرآن بلغتهـم يفهمـون هذا الكتاب المجيد بوجه عام ، ومع هذا اشتمل القرآن على بعض الـكلمات والعبـارات والاشـارات التـي لـم يفهمهـا كثـير من العـرب ، لا لأنهـا كانـت خارجـة عن لغتهـم ، ولـكن لأن الاسلام أكسبها من المعاني والمفاهيم ما لم يكن مألوفا في عصر ما قبل الاسلام ، ومن هنا دعت الحاجة إلى التفسير والتبيين .

وكان أول مفسر للقرآن الـكريم هو الرسـول صلى الله عليه وسلم ، فسره بسنته القولية والعملية والتقريرية ، فلـم تكن مهمة الرسول الكريم مقصورة على التبليغ ، وإنما كانتْ مع هذا البيان ﴿ **وأنزلنا اليك الذكر لـتُبـيّـن للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾[1] ولذا كان علم التفسـير في أول

---

(1) الآية : 44 في سورة النحل .

أمره جزءا من الحديث النبوي ، وقد تضمنت بعض كتب السنة كالموطأ والبخارى ومسلم أبوابا بعنوان « كتاب التفسير » .

وكان التفسير النبوي للقرآن هو ما أطلق عليه فيما بعد التفسير بالمأثور ، وظل هو السائد في عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وكان مرد ذلك إلى تحرج المسلمين من القول في القرآن بالرأي ؛ لأن هذا يعني القطع بأن الله تبارك وتعالى عنى بالآية ما ذهب إليه الصحابي أو التابعي ، وهو أمر لا سبيل إليه إلا عن طريق الرواية عن صاحب الرسالة .

وفي عصر التابعين تعددت المدارس التفسيرية في العواصم الاسلامية ، غير أنها مع تعددها وكثرة علمائها لم تخرج عن منهج الرواية والأثر .

وجاء عصر تابعي التابعين فظهر فيه عدد كثير من المفسرين ، ونسبت إلى بعضهم تفاسير ألفوها ، ولم يخرج مفسرو هذا العصر أيضا عن منهج الأثر .

وقد شهد هذا العصر بداية رحلة التدوين الفقهي في مدرسة الكوفة أولا . ثم في مدرسة المدينة ، وكانت هذه البداية في التدوين الفقهي بداية لتدوين التفسير .

لقد كان التفسير في القرنين الأول والثاني يعتمد على الرواية والأثر بوجه عام ، وكان المفسرون يتحرجون من القول في القرآن بالاجتهاد والرأي ؛ مخافة الوقوع في الخطأ ، وكانوا إلى جانب اعتمادهم على الأثر يهتمون بالتفسير اللغوي ، ولم يفسروا القرآن كله في القرن الأولى . وفي القرن الثاني عزيت بعض التفاسير الموجزة إلى بعض العلماء ، كذلك ألفت في هذا القرن كتب لغوية محضة عن القرآن ، وهي تعد امتدادا متطورا لما كان في القرن الأول من اهتمام بالتفسير اللغوي ، وقد حملت هذه الكتب عناوين مثل : غريب القرآن ، ومعاني القرآن ، ومشكل القرآن ومجاز القرآن ، بيد أن أكثر هذه الكتب قد ضاع ، شأنها في هذا شأن غيرها من كتب التراث العربي في الميادين الأخرى ، ومع هذا وصل الينا من تلك الكتب كتابان مهمان هما : مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت : 210 هـ) ، ومعاني القرآن للفراء (ت : 207 هـ) وكان لهذين الكتابين تأثير كبير فيما ألف بعد ذلك من كتب في هذا المجال [1] .

---

(1) انظر ، تاريخ التراث العربي ، للدكتور فؤاد سزكين المجلد الأول ص 197 الترجمة العربية .

وآلت آثار الصحابة والتابعين وتابعيهم في التفسير إلى ابن جرير الطبري (ت : 310 هـ) الذي يعد بحق إمام المفسرين جميعا ، وكلهم عالة عليه ، لقد ضم تفسيره الكبير باسناد دقيق كل مادة التفسير المهمة السابقة عليه تقريبا ، وهو أول تفسير بالمأثور صحيح النسبة إلى مؤلفه وصل الينا [1] .

وظهر بعد الامام الطبري التفسير بالرأي ، وهو لا ينصرف إلى القول في القرآن بالهوى أو التشهي وعدم العلم بأصول التفسير ؛ فقد أفاض العلماء في الحديث عن الرأي المقبول والمذموم في التفسير ، ومنعوا أن يقول أحد في القرآن إلا عن بينة وبرهان [2] ، فهذا القرآن كلام الله ، وهو بلسان عربي مبين ، وينبغي لمن يتصدى لشرحه والاجتهاد في فهمه أن تتحقق فيه الشروط التي أطبقت عليها كلمة العلماء في المفسر الجدير بهذا الوصف .

ويذهب بعض المعاصرين إلى أن التفسير بالرأي لكي يكون مقبولا ينبغي أن تتوافر فيمن يقدم عليه ما يلي :

أولاً : العلم باللغة العربية علما سليما ؛ لكي يدرك

---

(1) انظر : تاريخ التراث العربي المجلد الأول ص 197 .

(2) انظر الموافقات حـ 3 ص 254 — 257 .

معاني التصريف البياني في القرآن .

ثانياً : ألا يخالف المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ يكون مخالفا للمبين الأول للقرآن وهو النبي صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : ألا يتعصب لفكرة أو مذهب ، ويخضع القرآن لما يتعصب له ، فيكون تفسيره خاليا من الهوى [1] .

على أن التفسير بالرواية لم يتوقف بعد ظهور التفسير بالدراية ، فقد ظل مواكبا له ، وعرف تراثنا العلمي المجيد مؤلفات كثيرة تقتصر على الأثر في شرح النص المقدس .

وهذا التفسير أو ذاك تأثر بالتطورات الاجتماعية والثقافية في العصور الاسلامية المختلفة ، كما تأثر بشخصية المفسر وثقافته الذاتية ، وإن كان الأثر الشخصي في التفسير الأثري أقل وضوحا منه في التفسير العقلي ، فالمفسر بالدراية قد يرجح بين الآثار ؛ طوعا لما تمليه عليه ثقافته وميوله الفكرية ، ومن هنا يتلون هذا التفسير بشخصية المفسر ، ومعارفه العقلية ، ولعل كثرة الاسرائيليات في التفسير المروى مردها إلى ولوع بعض

---

(1) القرآن المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ص 608 ط أولى القاهرة .

علماء هذا التفسير بأخبار الخلق ، ونشأة الوجود[1] ، وتفصيل الأحداث الكبرى في تاريخ الانسانية ، بالاضافة إلى قلة معرفتهم بهذه الأخبار ، واعتمادهم في معرفتها على أهل الكتاب ، وهؤلاء خلطوا بين الأخبار الصحيحة والموضوعة ، بدافع من حقدهم على الاسلام ومقاومتهم له ، وكانوا من ثم يحرصون أبلغ الحرص على إذاعة ما يبلبل الأفكار ، ويثير الشبهات ، ويشغل الأمة بقضايا لا تمت إلى جوهر دينها ومقومات شريعتها .

ويبدو أثر الثقافة الخاصة للمفسر في التفسير العقلي واضحا في هذا التراث العلمي الذي خلفوه لنا ، فهو متعدد المناهج والاتجاهات والمنازع ؛ لتعدد الثقافات والمذاهب والنحل .

إن من كان من علماء هذا التفسير مبرزا في الفقه كالجصاص وابن العربي والقرطبي اهتم في تفسيره ببيان لأحكام ، وتقرير الأدلة للفروع الفقهية ، والرد على لمخالفين .

ومن كان مبرزا في العلوم العقلية كالفخر الرازي ملأ

(1) انظر مقدمة ابن خلدون ص 786 .

تفسيره باستعراض أقوال الحكماء والفلاسفة وشبههم والرد عليها .

ومن غلبت عليه الدراسات النحوية كالزجاج وأبي حيان اهتم أعظم الاهتمام بالاعراب ووجوهه ، ونقل قواعد النحو وفروعها .

ومن كان له منزع كلامي خاص كالزمخشري اهتم في تفسيره بتأويل الآيات ، وفق ما يتمشى مع مذهبه وما يؤمن به ، وإن كان الزمخشري لثقافته البلاغية الواسعة العميقة عرض في تفسيره لعلمي المعاني والبيان ؛ تحقيقا لوجوه اعجاز القرآن . وكان لهذا الجانب البلاغي في الكشاف أثره في مكانة هذا التفسير وذيوعه ، على الرغم مما احتوى عليه من آراء اعتزالية كثيرة .

أما الاشاريون وأرباب التصوف فتهمهم ناحية الترغيب والترهيب والزهد ، فيفسرون القرآن بما يوافق مشاربهم وأذواقهم ، وإن جنح بعضهم إلى الاغراق في عالم من الشطحات والتصورات التي تجافي منطق اللغة ، وتجعل من القرآن رموزا لمعان لا يدركها غير أصحاب المقامات والمنازل لديهم . وهذا إتجاه في تفسير كلام الله ينأى به عن دلالة نظمه

العربي المبين ، وتضيع معه أحكام الشريعة وتكاليفها، فهو تفسير متطرف مردود ، نفر منه القدماء واستقبحوه .

وعلى الاجمال نرى كل نابغة في فن أو داعية إلى مذهب أو فكرة يجتهد في تفسير الآيات بما يوافق فنه ، ويلائم مشربه ، ويناصر مذهبه ، ولو كان بعيدا كل البعد عن المقصد الذي نزل من أجله القرآن [1] .

ومع تشعب التفسير الاجتهادي وتأثره الواضح بثقافة المفسر الغالبة فإنه لم يهمل الأثر والرواية ، بل اعتمد عليها فيما يجب أن يعتمد وبخاصة في تفسير آيات الأحكام ، وهو لم يظهر طفرة بعد الطبري ، وإنما كانت له بذوره منذ عصر الصحابة ، فلما كثرت الفتوحات ، وآمنت شعوب مختلفة الثقافات والعادات بالاسلام، وحدثت الخلافات السياسية ، وما نجم عنها من فرق كلامية حاولت أن تتلمس في بعض آيات القرآن ما يدعم وجهة نظرها ولما نشأت المذاهب الفقهية ، واختلف الفقهاء في كثير من الفروع اجتهد بعض المفسرين في ان يستنبط من الآية ما يوافق مذهبه ، وكانت الترجمة وما أدت ليه من حركة فكرية لها آثارها السلبية والايجابية في الثقافة

(1) انظر مناهل العرفان جـ 1 ص 500 .

الاسلامية ـ لما حدث كل هذا وغيره من الظروف والعوامل التي وجهت المسلمين نحو التوسع في التفسير الاجتهادي أخذ هذا التفسير يتطور وينمو ويتشعب ويكثر التأليف فيه حتى غلب من حيث الكم التفسير الأثري .

وإذا كان التفسير العقلي لا يستغنى عن الأثر فإن التفسير النقلي لا يستغنى عن اعمال العقل والفكر ، فهو يدرس الأسانيد ، ويرجح بين المرويات ، ويؤثر معنى على آخر ، ونحو هذا ، ولكن دائرة العقل في هذا التفسير أضيق منها في التفسير بالرأي ، كما أن دائرة الرواية في هذا التفسير أضيق منها في التفسير الأثري . .

وفي العصر الحديث خطا التفسير بالرأي خطوة جديدة تتمثل في محاولة الجمع بين الرواية والدراية ، وطرح الخلافات المذهبية والمناقشات الكلامية ، ونبذ كل ما يتصل بالاسرائيليات [1] ، وربط القرآن بالحياة الانسانية ، والمشكلات الاجتماعية ، وتجلية الصورة الأدبية والتعبير الفني في هذا الكتاب المعجز ، وتوضيح القضايا الكلية والخصائص

---

(1) انظر على سبيل المثال فتح البيان في مقاصد القرآن للشيخ محمد صديق خان .

التشريعية له ، وأن ما جاء به هو وحـده الصراط المسـتقيم والدستور القويم ، والمنهج الذي لا يرقى إلى مستواه منهج آخر في شمولية التفنين ، والصلاحية الدائمة للتطبيق [1] ، ومن ثم لم يتقيد المفسرون المحدثون بحرفية أسباب النـزول ، ولـم يجمدوا على ما قالـه السابقـون ، وإنمـا اعتمـدوا على العقـل والنظريات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية ، ونتائج العلوم الثابتة ، وظروف العصر ومتطلباته [2] ، وذلك كله في أسلوب ميسر يفهمه جمهور المثقفين ، ولا يهتم اهتماماً كبيراً بالقضـايا النحوية ، والنكات البلاغية ، والتفسيرات الجـزئية ، وغـير هذا ممـا كان موضـع اهتمام بعض القدمـاء ـ إن لـم يكن جمهورهم ـ من المفسرين ، مما جعل الإمام محمد عبده (ت : 1323 هـ) يحمل على هذا الاتجاه في التفسير ، ويراه أقرب إلى التطبيقات العربية [3] منه إلى التفسـير الـذي يجعـل هدفـه الأعلى تجلية هدايات القـرآن وتعاليمـه وحكمـة الله فيما شرع للنـاس في هذا القـرآن على وجـه يجتـذب الأرواح ، ويفتح القلوب ، ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله . . .

---

(1) انظر في ظلال القرآن للاستاذ سيد قطب .

(2) انظر التعبير الفني في القرآن للدكتور بكر شيخ آمين ص 136.

(3) انظر تفسير المنار حـ 1 ص 21.

كذلك تتمثل تلك الخطوة الجديدة في كثرة ما كتب حول التفسير العلمي وهذا اللون من التفسير ليس وليد هذا العصر ، وإنما تضرب جذوره إلى عصر ازدهار الحياة العلمية في الحواضر الاسلامية ، وما يتردد الآن من حوار ونقاش ، وما يظهر من دراسات وأبحاث هو امتداد لما كان في الماضي ، وإن كانت ظروف عصرنا ـ عصر التجربة والعلوم التقنية ـ أضفت على التفسير العلمي للقرآن مزيدا من العناية والأخذ والرد حوله .

وقد سبق في الحديث عن الاعجاز العلمي أننا يجب الا نحمل الآيات فوق ما تحتمل ، والا نسرف في تلمس الأدلة القرآنية لكل ظاهرة علمية تجد ، فالعلم الإنساني لا يعرف الاستقرار وما كان نظرية مسلمة منذ فترة أصبح موضع شك أو ليس بنظرية الآن .

إن الآيات الكونية والاشارات العلمية في القرآن هي في المنزلة الأولى توجيه للانظار للعظة والاعتبار ، وحث للناس على البحث والتفكير لا تلقينهم نظريات وقوانين في مختلف العلوم ومن ثم لا يجوز الزج بالقرآن في كل قضية علمية ، كما لا يجوز أن نخضعه لتطور الفكر البشري ، ويكفي هذا

الكتاب الخالد أنه دعوة للعلم بأوسع معانيه ومختلف مجالاته ، وأنه لا يتضمن آية واحدة تشل حركة العقل أو تعوق نموها وتقدمها .

ومما يلفت النظر في جهود المعاصرين تلك المحاولة التي قام بها الاستاذ محمد عزة دروزة[1] في تفسيره الحديث ، فقد فسر القرآن وفقا لتاريخ نزول السور لا وفقا لترتيبها المعهود في المصحف وقال مدافعا عن وجهة نظره : رأينا هذا يتفق مع المنهج الذي اعتقدنا أنه الأفضل لفهم القرآن وخدمته ؛ إذ بذلك يمكن متابعة السيرة النبوية زمنا بعد زمن ، كما يمكن متابعة زمن أطوار التنزيل ومراحله بشكل واضح وأدق ، وبهذا أو ذاك يندمج القارىء في جو نزول القرآن وجو ظروفه ومناسباته ومداه ومفهوماته ، وتتجلى له حكمة التنزيل .

وقد قلبنا وجوه الرأي حول هذه الطريقة ، وتساءلنا عما إذا كان فيها مساس بقدسية المصحف المتداول ، فانتهى بنا الرأي إلى القرار عليها ؛ لأن التفسير ليس مصحفا للتلاوة من جهة ، وهو عمل فني أو علمي من جهة ثانية ، ولأن تفسير كل

(1) اتبع هذا المنهج أيضا الدكتور أسعد أحمد علي ، ون حاء تفسيره نظرات عامة في سور القرآن وفق ترتيب النزول ، بغية الكشف عن المنهج التربوي للقرآن الكريم .

سورة يصح أن يكون عملا مستقلا بذاته ، لا صلة له بترتيب المصحف ، وليس من شأنه أن يمس قدسيته من جهة ثالثة . .

وهذه المسوغات التي اعتمد عليها الاستاذ دروزة في قراره لا تقوم حجة له ؛ لأن تفسير سورة واحدة أو أكثر غير تفسير القرآن كله ، ثم إن علاقة فهم النص القرآني بمراحل تاريخ الدعوة لا يقتضي العدول عن ترتيب المصحف ، لأن هذا قد يفهم منه أن هذا الترتيب ـ وهو توقيفي ـ يعد عائقا في فهم النص المقدس ، وما قال بهذا أحد ـ فيما أعلم ـ قديما وحديثا ، وقد يفتح باب الكلام في قدسية ترتيب القرآن ، وحاول فتحه بعض المستشرقين الذين نادوا بطبع القرآن وفق ترتيب النزول .

وهذا التعقيب لا يطعن في الجهد الطيب الذي بذله ـ مأجورا ـ الأستاذ دروزة في تفسيره ، ولا يسيء الظن به ، أو ينال من جهاده المبرور في الدفاع عن كتاب الله ، ورد كيد أعدائه من اليهود والمبشرين والملحدين إلى نحورهم .

وخلاصة القول أن جهود العلماء في تفسير كتاب الله محاولات واجتهادات تتغيا الكشف عن معاني هذا الكتاب وأسراره ، وهي لا تسلم من الثقافة الذاتية ، والظروف

الزمانية والمكانية لكل عالم ، وكلما تردد النظر في القرآن كان الجديد الذي يمكن أن يقال ، فهو كتاب لا يَـخْـلَـقُ على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، بل إن الأجيال والأحقاب تنقضي ولما يحط الناس بتأويل كل ما فيه [1] ، وهذا آية من آيات خلوده وإعجازه لكل عصر ، وآية عمومه وأنه آخر كتاب ينزل لهداية البشر إلى يوم الدين .

ومن هنا وجب على كل جيل أن يحاول ما استطاع إضافة جديد إلى ما خلفه السابقون في مجال تفسير هذا القرآن والانتفاع بتعاليمه ومبادئه ، حتى يظل حبل الاتصال والاعتصام بهذا القرآن وثيقا ، فهو وحده ملاذنا ، وبه صلاح دنيانا وآخرتنا .

---

(1) النبأ العظيم ص 79.

الفصل الثامن

«الترجمة»

يقصد بكلمة الترجمة نقل نص من لغة إلى أخرى ، وذلك لأن لهذه الكلمة عِدة معان [1] ، من بينها هذا المعنى ، وهو أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماعها .

وترجمة القرآن ، أو ترجمة معانيه على وجه الدقة علم من علوم القرآن التي جدت حديثا ، وقد أفرد هذا العلم بعض الباحثين بالبحث ، كما عرض له آخرون ضمن تناولهم لعلوم القرآن .

ويقتضي الحديث عن هذا الموضوع ذكر الحقائق التالية :

أولاً : إن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، واعجازه يشمل اللفظ والمعنى ، كما أن التعبد بتلاوته لا يكون إلا بهما ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ [2] ﴿ نزل به

(1) انظر مناهل العرفان جـ 2 ص 27.
(2) الآية 2 في سورة يوسف .

الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين ﴾[1] .

ثانياً : هذا القرآن دعوة الله للناس جميعا ، فهو يخاطبهم في كثير من آياته يدعوهم للايمان وينهاهم عن الشرك ، بل إن من هذه الآيات ما ينص صراحة على عموم رسالة الاسلام ، وأن كل انسان مخاطب بها وأن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل للعرب وحدهم ، وإنما بعث رحمة للعالمين ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[2] ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[3] .

ثالثاً : من دلائل قدرة الله تبارك وتعالى اختلاف الناس في الألوان والألسن ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾[4] .

وما دام القرآن عربي اللسان ، ومعجزا بنظمه ومعناه ، وما دام رسالة الله الخاتمة العامة ، وما دام الناس أمة غير واحدة

---

(1) الآية 193 — 195 في سورة الشعراء .
(2) الآية 28 في سورة سبأ .
(3) الآية 107 في سورة الأنبياء .
(4) الآية 22 في سورة الروم .

لسانا ولونا ، فكيف يمكن تبليغ دعوة القرآن إلى كل إنسان تبليغا يضع عنا إصر التقصير ، ويلزم الآخرين مسئولية البلاغ ؟ .

إن الدارس لتاريخ انتشار الدعوة الاسلامية في أقطار شتى متباينة اللغات والعادات والثقافات يلفت نظره أن المسلمين لم يتخذوا من ترجمة القرآن إلى لغات هذه الشعوب والأقطار سبيلا لتبليغهم وإنذارهم ، وإنما كانوا يفسرون لهم أركان العقيدة ومثلها قولا وعملا ، لقد كانوا اسلاما يتحرك بين الناس ، وكان هؤلاء يقبلون الاسلام أو يعرضون عنه عن رغبة واختيار ، فلا اكراه في الدين ، وما كانت الحروب الاسلامية لحمل أحد على الإيمان بعقيدة كرها وقسرا ، وإنما كانت هذه الحروب ـ وستظل ـ وسيلة لحماية الحق ، وارهاب الباطل ، وكفالة الحرية الدينية لكل انسان ، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

ومع هذا تعرض العلماء قديما لموضوع ترجمة القرآن ، فهم قد تحدثوا في صلاة من يعجز عن القراءة بالعربية ، ويكاد الجمهور يذهب إلى أن من قرأ في صلاته بغير العربية كالفارسية

مثلا فإن صلاته[1] باطلة ، وعلى من يعجز عن القراءة بالعربية لحداثة اسلامه أن يدعو بلسانه ما شاء له أن يدعو . ويُعزى إلى أبي حنيفة أنه يرى صحة صلاة من قرأ فيها بغير العربية سواء أكان عاجزا عنها أم قادرا عليها . ولكن الصاحبين يخالفان إمامهما في صحة هذه الصلاة لمن قدر على العربية ، ويذهبان مذهبه فيمن عجز عنها[2] ويعزى إلى أبي حنيفة أيضاً أنه رجع عن ذلك الرأي ، ولا يكون العدول إلا عن يقين بأن ما كان قد أفتى به أولا لم يرضه ، أو لم يطمئن إليه ، أو لعله راعى ظروف الذين دخلوا في الاسلام من الفرس ، فيسَّر عليهم أمر الصلاة ، وحكم بصحتها لمن قرأ فيها بالفارسية ، حتى لانت السنتهم للقراءة بالعربية ، فهي الضرورة التي تبيح المحظور أو ترفع الضيق والحرج[3] .

وكما تحدث العلماء في قراءة القرآن بغير العربية في

---

(1) قال صاحب البرهان : لا تجوز قراءته ـ أي القرآن ـ بالعجمية سواء أحسن العربية أم لا في الصلاة وخارجها ، لقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا ﴾ (البرهان حـ 2 ص 464) .

(2) انظر مجلة الأزهر المجلد السابع ص 77 ـ 112 ، ص 123 — 134 ، ص 190 — 198.

(3) انظر مناهل العرفان حـ 2 ص 56 ، و« أبو حنيفة » للشيخ محمد أبو زهرة .

الصلاة تحدثوا كذلك في ترجمته إلى غير اللغة التي أنزل بها ، وهم في هذا قد أطبقت كلمتهم على أن هذه الترجمة أمر جائز ، بل إن منهم من أنزلها منزلة فروض الكفاية ، فهي احدى وسائل التبليغ والبيان إلى من كان لسانهم غير عربي .

قال الزمخشري وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ : «فإن قلت: لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم للعرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس أجمعين ، بل إلى الثقلين وهم على السنة مختلفة ، فإن لم تكن للعرب حجة على الله لفهمهم القرآن بلغتهم ، فلغيرهم من الأعاجم الحجة ، قلت : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو واحد منها ، ولا حاجة لنزوله بجميع الألسنة ؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك ، وتكفي التطويل ، فبقي أن ينزل بلسان واحد ، فكان أولى الالسنة لسان قوم الرسول ؛ لأنهم أقرب إليه ، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر قامت التراجم ببيانه وتفهيمه كما نرى الحال ، ونشاهدها في كل أمة من أمم العجم »[1] .

وقال ابن حجر في فتح الباري في « باب نزل القرآن

---

(1) انظر الكشاف حـ 2 ص .366 ط الحلبي .

بلسان قريش والعرب » : « ولا يرد على هذا كونـه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة عربا وعجما وغيرهـم ؛ لأن اللسان الـذي نزل عليه به الوحـي عربـي ، وهـو يبلغـه إلى طوائف العرب ، وهم يترجمونه لغير العرب بألسنتهم »[1] .

وإذا كان الأقدمون يذهبون إلى أن ترجمة القرآن أمر لا بأس به ، فإنهم مع هذا يرون أن الترجمة الحرفية للقرآن كله أمر متعذر ، بل مستحيل ؛ إذ لكل لغـة خصـائص تركيبية وبيانية تنفرد بها ، ولا يمكن نقلها إلى لغة أخرى ، يقول ابن فارس (ت 395 هـ) « لا يقدر أحد من التراجـم على أن ينقـل القـرآن إلى شيء من الألسـن ، كما نقـل الانجيل عن السريانية إلى الحبشية والـرومية ، وترجمـت التـوراة والزبـور وسائر كتب الله تعالى بالعربية ؛ لأن العجم لم تتسع في الكلام اتساع العرب ، ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبـذ إليهـم على سواء ﴾[2] لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ المؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعتهـا ، وتصـل مقطوعهـا ، وتظهـر مستورهـا ،

---

(1) فتح الباري حـ 10 ص 384 ط الحلبي .
(2) الآية 58 في سورة الانفال .

فتقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد ، فخفت منهم خيانة ونقضا فاعلمهم أنك قد نقضت ما شرطته لهم ، وآذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء[1] .

ومن ثم فإن أية ترجمة للقرآن ـ مهما علا كعب صاحبها في البلاغة ـ لا يمكن أن تحمل وجوه الاعجاز التي يحملها القرآن ، فلا تكون القرآن المتعبد بتلاوته ، ولا تأخذ قدسيته ، وهي لا تتجاوز بعض المعاني التي فهمها المترجم بقدر الامكان من النص المقدس .

من تاريخ ترجمة القرآن :

لم يترجم المسلمون إذن قديما القرآن الكريم ، ليدعوا الناس إليه ، وإن كانت لهم آراؤهم في صلاة من قرأ بغير العربية ، وكذلك في حكم ترجمة القرآن إلى سائر اللغات ، وإنما ترجم القرآن أول ما ترجم على أيدي غير المسلمين ، وتذكر الروايات أن السريان كانوا أول من ترجم بعض آيات من القرآن إلى لغتهم ، وذلك في عهد هشام بن عبد الملك (ت : 125 هـ) ففي متحف لندن مجموعة من المخطوطات

(1) المستشرقون وترجمة القرآن الكريم للدكتور محمد صالح البنداق ص 59

باللغة السريانية تعود إلى خلافة هشام وفيهـا طائفـة من آيات القرآن الكريم مترجمة إلى هذه اللغة .

ولما عبر الاسلام إلى أوربا في مستهـل القـرن الهجـري الثاني ، واستقر في الأندلس وجنـوب ايطـالي وجـزر البحـر المتوسط انزعجت الكنيسة وخافت على ما كانت تتمتـع به من سلطة كبرى وكلمة عليا ليس على الشعـوب بجميع طبقاتهـا فحسب ، بل على الرؤوس المتوجه نفسها ؛ لأن مبادىء هذا الدين لا تجعل لإنسان سلطانا على غيره في عقيدته ، وتقضي بالمساواة بين الناس كافة ، وتقيم مقياسا واحدا للتفاضل بينهم عند الله ، وهو التقوى والعمل الصالح ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1] ومن ثم مارست الكنيسة ضد الاسلام كل دعاية ظالمة ، وراحت بكل الوسائل تنفر أتباعها منه كل التنفـير ، ومن ذلك الاقدام على ترجمة القرآن ترجمة محرفة مشوهة لا تعرف الموضوعية أو الأمانة العلمية ، وكان كل من يترجم القرآن من الأوروبيين المسيحيين يشفع ترجمته بمقدمات وتذييلات وبعض الحواشي في دحض الكتاب الكريم وتفنيده ، وذلك من قبيل الاعلان عن حسن إيمانه وصحة عقيدته ، حتى يمكن أن تنشر

---

(1) الآية 13 في سورة الحجرات .

ترجمته ، وترضى الكنيسة عنه[1] وكانت أول ترجمة أوربية للقرآن تستحق الذكر هي تلك التي تمت في « دير كليني » في جنوب فرنسا ، وهو من الأديرة التي كان فيها مركز للدراسات العربية ، فقد أصدر راعي الدير « بطرس المبجل » تعلياته الخاصة بوضع ترجمة للقرآن باللاتينية بغرض تفنيده ، وذلك في مقابل أجر طائل .

وقد اشترك في هذه الترجمة ثلاثة : منهم انجليزي ، وآخر ألماني ، وراهب اسباني عربي ، واستغرقت مدة الترجمة ثلاث سنوات (1141 — 1143 م) خرجت بعدها الترجمة غير جديرة أن تسمى ترجمة ؛ لكثرة ما فيها من حرية التصرف والأخطاء التي لا عداد لها ، فضلا عن الحذف والإضافة حتى لم يبق بها من المشابهة للأصل إلا النادر الأقل .

وبقيت هذه الترجمة مخطوطا نحو أربعة قرون ، ثم طبعت سنة 1543 م في مدينة بال السويسرية ، وما كادت هذه الترجمة تنشر حتى ترجمت من اللاتينية إلى الايطالية والالمانية والهولاندية ، وسوى هذا من اللغات الاوربية[2] .

---

(1) انظر مجلة « الهلال » ديسمبر سنة 1970 ص 109.

(2) انظر المصدر السابق ص 108.

ومنذ عصر النهضة في أوربا وحتى الآن كثرت ترجمات القرآن وبلغت بإحصاء بعض الباحثين نحو مائة وعشرين ترجمة في ست وثلاثين لغة ما بين شرقية وغربية ، وكان من بينها ترجمات قام بها مسلمون غير عرب كالفرس والترك والباكستانيين والهنود ، وأهل السند والملايو ، ومسلمي الصين وروسيا واليابان [1] . . . الخ .

والترجمات التي قام بها غير العرب من المسلمين كانت أفضل حالا من الترجمات التي قام بها سواهم ، وما وقع فيها من بعض الهنات أو الهفوات ليس مرده إلى سوء النية والرغبة في تشويه القرآن ، وإنما مرده إلى ما يمكن أن يقع فيه المجتهد المسلم من خطأ في اجتهاده ؛ لأسباب مختلفة .

على أن هناك بعض الترجمات التي قام بها أناس يزعمون أنهم مسلمون ولكنهم أشد خطرا عليه من غير المسلمين ، وهم طائفة القاديانية [2] ، لقد قدمت هذه الطائفة آراءها المنحرفة تحت ستار ترجمة القرآن ، وكان لهذه الآراء أفدح الخطر والضرر على الفكر الاسلامي الأصيل بين غير المسلمين في

---

(1) انظر المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ص 96 .

(2) انظر تاريخ المذاهب الاسلامية للشيخ محمد أبو زهرة حـ 1 ص 248 .

العصر الحاضر .

أما الترجمات التي تمت على أيدي غير المسلمين ، وهي كثيرة فلا تخلو من تحريف وتشويه ومهاجمة للقرآن وإثارة الشبهات والاتهامات الباطلة حوله ، وإن كانت هناك بعض الترجمات القليلة النادرة التي يمكن وصفها بالاعتدال والأمانة العلمية ، غير أن مثل هذه الترجمات لم يكن يتاح لها من الذيوع ما يتاح لغيرها من الترجمات المحرفة ، ومن ثم لم يكن لها تأثير ذو بال ، وظلت الصورة المشوهة عن القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم ؛ بسبب تلك الترجمات المحرفة تسيطر بوجه عام على أفكار ومشاعر غير المسلمين ـ وبخاصة في أوربا وأمريكا ـ حتى الآن .

الترجمة بين الاباحة والمنع :

نبهت كثرة الترجمات المحرفة المسلمين في العصر الحديث إلى خطورة الأمر ، وإلى ما يجب عليهم حياله ، فكانت لهم آراؤهم المتباينة فيه ، ومن هذه الآراء ما يذهب إلى تحريم الترجمة وأن الاقدام عليها من المسلمين يعد أخطر حدث في تاريخ الاسلام في العصر الحاضر[1] ، واعتمد أصحاب هذا

(1) انظر « حدث الأحداث في الاسلام الإقدام على ترجمة القرآن للشيخ محمد سليمان .

الرأي على الحجج التالية :

1 ـ إن القرآن معجز لا يمكن ترجمته .

2 ـ إن ترجمة القرآن بحرفيته غير ميسورة .

3 ـ إن الترجمة تفقد القرآن روعة النظم العربي والطلاوة واللذة والتأثير في النفوس .

4 ـ أن بعض الالفاظ العربية يجب أن يسلط عليها التأويل امتثالا لدليل العقل ، وهذا لا يمكن في التراجم[1] .

ولكن هذا الاتجاه الذي يرى حرمة الترجمة لم يصمد أمام تيار الدعوة إلى إباحة الترجمة ووجوب القيام بها ؛ تبليغا للدين إلى كل إنسان . وأما تلك الحجج التي استند عليها دعاة الحظر للترجمة فلا تسلم لهم ، ولا تنهض على أدلة مقبولة ، فالاعجاز البياني ليس غاية من غايات الترجمة ، فهو أمر لا سبيل إليه باتفاق الجميع ، ومن ثم يستحيل أن تحمل الترجمة إلى أية لغة من اللغات المعنى ووجه الاعجاز ، ولكن عدم امكان ترجمة دليل الاعجاز لا يستلزم عدم امكان نقل المعنى نقلا صادقا أمينا يشرح المعاني القرآنية ، ويتيح لغير العرب فرصة الاطلاع

---

(1) انظر المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ص 73 ، ومجلة الأزهر المجلد السابع ص 82.

عليها والالمام بها ، ولذلك تعتبر الترجمة في الواقع تفسيرا للقرآن ولا تعد عينه ، ولا يضير إذا أخلت بشيء من معانيه الكثيرة التي ليس في طوق غير العربي أن يدركها ، ويعبر عنها[1] .

ودعا بعض الذين نادوا بالترجمة إلى أن تكون هذه الترجمة حرفية ، قال أحد هؤلاء [2] : «إن وضع القيود غير المعقولة في مسألة نقل القرآن يقضي عليه بهزيمة منكرة تقع نتائجها علينا وعلى أعقابنا قرونا طويلة ، ومعناه صده عن الجولان في الدورة الفكرية العالمية مع غيره من الأديان السابقة ، وإن كل ما يخشى منه أن يوكل أمر البت في هذا الشأن لمن لا يعرفون لغات أجنبية فيخيل اليهم أنها لغات بربرية تخلو من جميع الزخارف اللفظية والمعنوية التي لا توجد إلا في اللغة العربية ، وإن تعطيل القرآن عن الترجمة الحرفية ، والزج به في معترك الأفهام إلى اليوم قضى عليه بألاّ يكسب أنصارا من الأمم الغربية ، فصار مقصورا على الأمم الشرقية التي رضيت أن يكون حظها من دينها كحظ الببغاء »[3] .

---

(1) انظر مجلة الازهر المجلد السابع ص 197 .

(2) هو المفكر العالم الأستاذ محمدفريد وجدي صاحب دائرة معارف القرن العشرين ، والدراسات والمؤلفات العلمية الرصينة (ت 1373 هـ = 1954 م) .

(3) انظر المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ص 74.

ولم يلق هذا الاتجاه في الترجمة أذنا صاغية ، وعارضه بعض العلماء معارضة شديدة ، وانتصر عليه الاتجاه الذي يذهب إلى استحالة الترجمة الحرفية ، وأن الترجمة التفسيرية هي وحدها السبيل الأمثل لنقل المعاني القرآنية إلى غير الناطقين باللسان العربي .

وكان للامام الشيخ محمد مصطفى المراغي (ت 1364 هـ ـ1945 م) شيخ الجامع الأزهر دور بارز في الدعوة إلى الترجمة التفسيرية ، وله في الموضوع دراسة[1] قيمة عرض فيها لآراء الأقدين ، وناقش أدلة المانعين ، ودعا المسئولين إلى العمل من أجل ترجمة معاني القرآن ترجمة صحيحة ؛ تحقيقا لمبدأ عالمية القرآن ، وأن الناس جميعا ـ على تباين السنتهم ـ مخاطبون به . .

ومع أن الشيخ المراغي شكل لجنة فنية من علماء الأزهر لوضع قواعد لتفسير القرآن تفسيرا وجيزا دقيق العبارة يقتصر فيه على المعنى العام للآيات دون الاشارة إلى الآراء الخلافية والقضايا الجانبية والنظريات العلمية ، ثم ينقل هذا التفسير عن طريق لجان متخصصة إلى اللغات الأجنبية العالمية منها

---

(1) انظر مجلة الازهر المجلد السابع ص 77 — 112.

والمحلية ـ مع هذا لم تظهر ترجمة للقرآن ـ فيما أعلم ـ تعاون على إخراجها لجان فنية للتفسير ، وأخرى للترجمة الأمينة التي لا تعرف التزيد أو القصور ، وكل ما ظهر من ترجمات للقرآن في العصر الحاضر بين المسلمين يمثل جهودا فردية ، وهي وحدها لا تكفي ، ولا تضع عنا إصر التقصير والاهمال في التبليغ ، ومقاومة المحرفين والمشوهين ومن في قلوبهم مرض من اليهود والنصارى .

والخلاصة أن القرآن دعوة الله العامة الخاتمة ، وأنه نزل بلسان عربي مبين ، وأن ترجمته الحرفية مستحيلة ، وأن ترجمته الصحيحة لا تعدو أن تكون تفسيراً له بلسان غير عربي ، وأن هذه الترجمة لا تحمل قدسية القرآن ، فلا تصح الصلاة بها ، ولا يتعبد بتلاوتها ، ولا يحظر على غير الطاهر مسها ، فهي لون من التفسير ، وما قد يقع فيها من أخطاء هو كالذي يقع من المفسرين للقرآن باللسان العربي .

والتعاون بين المسلمين ولا سيما أجهزة الدعوة إلى الاسلام في العالم الاسلامي ضرورة دينية لتقديم ترجمات أكثر دقة لمعاني القرآن ، وكذلك دراسات حوله . وهذا التعاون إذا كان بمنجاة من الأهواء السياسية والفكرية ، وخلص لوجه الله

حقق أطيب الثمرات ، ووضع أمام البشرية التائهة في ظلمات المادية والعنصرية المبادىء التي تهدي للتي هي أقوم ، لعلها تسلك طريق الرشاد ، فتنقذ نفسها مما هي فيه ، ومما قد تتعرض له من دمار شامل يقضي على الإنسان والحيوان والنبات .

ويذهب بعض [1] المعاصرين إلى أن ترجمة معاني الجانب العلمي في القرآن الكريم يفيد أكبر فائدة في توجيه أنظار العالم اليوم نحو الاسلام ، وأنه دين صحيح ، ويقضي على ما غرسه الاستشراق من خرافات وأوهام في أذهان ومشاعر غير المسلمين حول هذا الدين ، وهذا صحيح إلى حد ما ، والأصح منه أن يقدم المسلمون ترجمة عملية للقرآن من خلال سلوكهم ، واعتصامهم بحبل الله ، فالعالم اليوم لايعير الآراء والنظريات المجردة اهتماما ، ولكنه يعير الواقع العملي أكبر الاهتمام ، وأعتقد أن واقع العالم الاسلامي حجة داحضة على أن الاسلام دين الوحدة والقوة والعزة والفضيلة والكرامة ، فلنترجم القرآن إلى سلوك حتى يكون للترجمة النظرية لمعانيه برهانها العملي الواقعي ، وبذلك تحقق هذه الترجمة الغاية المنشودة منها تحقيقا كاملا إن شاء الله .

---

(1) انظر القرآن والعلم الحديث للاستاذ عبد الرزاق نوفل ص 25 ط دار المعارف .

الفصل التاسع

«منهج القرآن في تقرير الأحكام»

للقرآن الكريم في تقرير ما جاء به من أحكام منهج خاص انفرد به ، ولم يعرض لهذا المنهج بشيء من الدراسة التفصيلية مَنْ كتب في العلوم القرآنية قديما وحديثا بوجه[1] عام ، فهم لم يخصصوا لهذا الموضوع بابا أو فصلا في كتبهم كما فعلوا بالنسبة لأسباب النزول والمكي والمدني مثلا ، فضلا عن افراده بالتصنيف والتأليف ، وإنما هي إشارات مقتضبة أحيانا إليه لا تغني ولا تجدي ، وربما يرون أنها قضية تتعلق بعلم الأصول والفقه ، ولا تدخل في صميم العلوم القرآنية ، وهي ليست كذلك ، فهي أدخل في باب هذه العلوم منها في باب أي علم آخر ، وإن كان علم الأصول والفقه يدخل في إطار العلوم القرآنية بالمفهوم العام لهذه العلوم .

---

(1) عكف أحد طلاب الدراسات العليا بجامعة الفاتح وهو الأخ الأستاذ مصطفى الباحقني على دراسة هذا الموضوع باشرافي ، وقدم فيه عملا علميا طيبا ـ لم يسبق به فيما أعلم ـ حصل به على درجة الماجستير في الدراسات الاسلامية من قسم اللغة العربية والدراسات الاسلامية بكلية التربية جامعة الفاتح .

وتحسن ـ قبل الحديث في صورة اجمالية عن خصائص ذلك المنهج أو سماته العامة ـ الإشارة إلى أنواع الأحكام التي جاء بها القرآن .

إن من يستقرىء آيات الكتاب العزيز يلاحظ أنها لا تخرج من حيث ما اشتملت عليه من أحكام عن ثلاثة أنواع ، وإن كان كل نوع منها يضم مجموعة من الأحكام . والأنواع الثلاثة الأساسية هي :

أولاً : أحكام اعتقادية تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار . فكل مسلم لا تصح عقيدته إلا بالايمان الصادق بوجود الله ووحدانيته ، وأنه سبحانه متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، وكذلك الايمان بالملائكة الذين لا يفترون عن عبادة ربهم ، ولا يعصونه فيما يأمرهم به ، ويفعلون ما يُؤمرن ، والايمان بالكتب التي أنزلها الله وأوحى بها إلى أنبيائه ورسله الذين اصطفاهم من عباده لانذار الخلق ؛ حتى لا يكون لهم عذر يوم الدين ، وهو اليوم الآخر يوم الحساب والثواب والعقاب ، ﴿ يوم تَجِد كلُّ نفس ما عَمِلت من خَيْر مُحْضَرا ، وما عَمِلت من سوء تودُّ

لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا ﴾[1] يوم ﴿ لا يَجْزِي والدٌ عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ﴾[2] ﴿ فَمَنْ عَمِلَ صالحاً فَلِنَفْسِه ومن أساء فعليها وما ربُّك بظلاَّم للعبيد ﴾[3] .

والآيات في هذا النوع من الأحكام كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ ليس البر أن تُولُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرق والمغرب ، ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . . . ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أُنْزِل إليه من ربِّه والمؤمنون ، كلٌّ آمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نُفَرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[5] .

وسميت هذه الأحكام بالاعتقادية ، وهي تسمية اصطلاحية ؛ لأنها تتعلق بالاعتقاد الجازم الذي لا يتطرق إليه الشك أو الوهن ، وإن لم يكن لها مظهر خارجي ، وهذا لا

---

(1) الآية 30 في سورة آل عمران .
(2) الآية 34 في سورة لقمان .
(3) الآية 46 في سورة فصلت .
(4) الآية 177 في سورة البقرة .
(5) الآية 285 في سورة البقرة .

ينفى أن الايمان الصادق هو ما وُقر في القلب وصدقه العمل ، وأن الاعتقاد بهذه الأحكام يترتب عليه بالضرورة العمل وفق ذلك الاعتقاد ، ولكن لأن العمل أحياناً كالصلاة والزكاة قد يكون رياء ونفاقا، وليس تعبيرا صادقا عن عقيدة صحيحة أطلق على تلك الأحكام ذلك الاصطلاح ؛ للتمييز بين أحكام القرآن، وهي كلها وحدة مترابطة من حيث الاعتقاد والعمل .

ثانياً : أحكام خلقية تتعلق بما يجب على المكلف أن يتحلى به من الفضائل وأن يتخلى عنه من الرذائل .

إن القرآن آخر وحي الله إلى الأرض فهو الشريعة الخاتمة التي بينت للناس معالم الطريق نحو رضوان الله ، وقوام هذه الشريعة بعد الاعتقاد بفاطر الكون كله التربية الأخلاقية التي يراقب فيها الإنسان نفسه ، ويلتزم بما كُتب عليه بوازع من ضميره ، وسلطان إيمانه قبل أي وازع آخر ، ومن ثم كانت الأخلاق القرآنية هي وحدها التي تحفظ على الانسان آدميته وكرامته ، وتجعل منه عبدا للرحمن وحده يمشي على الأرض هونا ، فلا طغيان ولا استعلاء وإذا خاطبه جاهل لم يكن فظا غليظ القلب في الرد عليه ، وإنما كان سلاماً وخلقا كريما ، يدفع بالتي هي أحسن ، ولا يعبأ باللغو ، ولا يقترف منكرا ،

ولا يفرط في عمل صالح .

إن الأخلاق القرآنية لانبثاقها عن عقيدة الإيمان بالواحد الأحد الفرد الصمد تربي في الإنسان القوة والعزة في غير كبر أو فساد في الأرض ، والصبر والتواضع في غير ذلة أو مهانة ، والعفو والرحمة في غير ضعف ، والوئام والسلام في غير خوف ، والتعاون والتكافل في غير مَنّ ، والحرية والكرامة في غير بغي أو فوضى ، والصدق والاخلاص في غير نفاق أو رياء ، والعدل والانصاف في غير جنف أو محاباة ، فمن أخذ نفسه بهذه الأخلاق ، كان من الذين حسن سعيهم في الحياة الدنيا ، وكان له يوم القيامة ثواب عظيم .

ومن الآيات الجامعة لأخلاق المسلم والمسلمة قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرةً وأجْراً عظيما** ﴾[1] .

---

(1) الآية 35 ، في سورة الأحزاب .

ثالثاً : أحكام عملية تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات ، وهذه تنتظم نوعين :

ا ـ أحكام العبادات من صلاة وصيام وحج ونحوها من العبادات التي يقصد بها تنظيم علاقة الانسان بربه .

ب ـ أحكام المعاملات من عقود وتصرفات ونحوها من الأحكام التي يقصد بها تنظيم علاقة المكلفين بعضهم ببعض سواء أكانوا أفرادا أم جماعات[1] .

وهذه الأحكام العملية سواء منها ما سمى بالعبادات أو المعاملات هي الدستور الالهي الذي لا يعدله دستور آخر من وضع البشر، إنه وحده المنهج الذي يكفل للإنسان أداء رسالته كما ينبغي أن تكون على ظهر هذه الأرض ، كما يكفل له الخلود في دار السلام .

ويخطىء من يظن أن أحكام المعاملات من عقود وتصرفات لا ترقى في أهميتها إلى درجة العبادات ، وأن الإنسان ما دام يقوم بهذه العبادات فلا ضير عليه إن قصر في المعاملات ، وذلك لأن تقسيم الأحكام العملية إلى عبادات ومعاملات هو عمل فني دراسي ، ولا يعني اطلاقا أن هناك

(1) انظر علم أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف ص 31.

تفرقة من حيث المسئولية والطاعة لله بين صلاة وبيع ، أو صيام وزرع ، فكل عمل يقوم به الإنسان عبادة وطاعة إذا ما كان مشروعا وتمحض لله حتى ما كان منه في ظاهره شهوة ومتعة كالعلاقة الخاصة بين الرجل وزوجه .

إن شعور الانسان الدائم برقابة الله عليه ، وأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وهو مع الإنسان أينما كان يحيل كل سلوك بشري إلى عبادة وخشية ، ومن ثم يصبح الإنسان عابدا لخالقه في المسجد والطريق ومكان العمل وطعامه وشرابه ، وهو يلهو مع أهله وأولاده ، أو ينام ، وبعبارة مجملة تصبح حياته كلها طاعة وعبادة .

تلك هي أنواع الأحكام الأساسية التي جاء بها القرآن الكريم ، وتحت كل نوع قضايا وأحكام متعددة لا مجال هنا للقول فيها ، ولكن ما يجب التأكيد عليه أن كل الأحكام القرآنية تخرج من مشكاة واحدة ، وتمثل بنيانا مرصوصاً يشد بعضه بعضا ، وليس الحديث عنها على ذلك النحو من التقسيم إلا لونا من الدراسة العلمية المعاصرة التي تحاول تناول الأحكام القرآنية في صورة توضح ألوانها ، وتيسر الالمام بها ، وذلك لأن العلاقة العضوية بين كل هذه الأحكام تقضي بأنها في درجة

سواء من حيث وجوب الالتزام بها ، وتؤكد أن الايمان الكامل قول وعمل ، وأن المسلم الذي لا يكون سلوكه تعبيرا عن عقيدة راسخة ، أو يدعي أنه مؤمن دون أن يترجم إيمانه إلى عمل هو من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويكون من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فلا نفع في إيمان بلا عمل ، ولا جدوى من عمل ما لم يكن تعبيرا صحيحاً عن إيمان صحيح .

وبعد هذه الاشارات إلى أنواع الأحكام القرآنية ما هو المنهج القرآني في تقريرها والحديث عنها ؟ .

إن الكلام في هذا المنهج في تفصيل وشمول يحتاج إلى دراسة مطولة ،ومن ثم اجتزىء فيما يلي ببيان الخصائص العامة والقواعد الكلية لذلك المنهج وهي :

أولاً : يغلب على المنهج القرآني في تقرير الأحكام ، وبخاصة أحكام المعاملات إيثار الاجمال والاكتفاء في أغلب الشأن بالإشارة إلى مقاصد التشريع وقواعده الكلية ومبادئه العامة دون ذكر لأحكام الجزئيات .

يقول الشاطبي : تعريف القرآن بالأحكام الشرعية

أكثره كلي لا جزئي ، وحيث جاء جزئيا فمأخذه على الكلية إما بالاعتبار ، أو بمعنى الأصل إلا ما خصه الدليل ، مثل خصائص النبي صلى الله عليه وسلم [1] .

ويقول الشاطبي كذلك وهو يتحدث في وجوب الاعتماد على السنة في تفسير القرآن ولا سيما فيما يتعلق بآيات الأحكام : « لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر في شرحه وبيانه ، وهو السنة ؛ لأنه إذا كان كليا وفيه أمور كلية كما في شأن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها ، فلامحيص عن النظر في بيانه ، وبعد ذلك ينظر في تفسير السلف الصالح إن أعوزته السنة فإنهم أعرف به من غيرهم [2] .

وقال أيضا : السنة راجعة[3] في معناها إلى الكتاب ، فهي تفصيل مجمله ، وبيان مشكله ، وبسط مختصره ؛ لأنها بيان له ، وهو الذي دل عليه قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ فلا تجد في السنة أمرا إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية ، وأيضا فكل ما دل على أن القرآن هو كلية الشريعة وينبوع لها فهو دليل على

---

(1) الموافقات حـ 3 ص 216.

(2) المصدر السابق ص 369.

(3) أي بيان لما فيه .

ذلك[1] .

إذن جاءت أحكام القرآن مجملة في أغلب الأحيان ، وبينت السنة النبوية ـ وهي في هذا وحي يُوحي ـ هذه الأحكام المجملة بيانا وافيا شافيا ، فالصلاة مثلا جاء الحديث عنها في القرآن أمراً بها ، وإشارة إلى الحكمة من فرضيتها ، وغسْل ما يجب أن يغسل من الاعضاء قبل القيام لها ، وما يجب أن يكون عليه المسلم في صلاته من الخشوع لله رب العالمين .

أما هيئات الصلاة وعدد ركعات كل فرض منها وسننها وأنواعها ومبطلاتها فقد بينته السنة القولية والعملية .

واقتصار القرآن على الاجمال دون التفصيل غالبا في بيان الأحكام ومجيئه بالقواعد الكلية وتقريره للمبادىء العامة ودعوته إلى الاجتهاد ، واستنباط الأحكام لكل ما يجد من أحداث ويقع من مشكلات آية من آيات اعجاز هذا الكتاب الكريم ، ودليل من أدلة صلاحية الشريعة الغراء لكل زمان ومكان .

على أن ما فصله القرآن من أحكام وورد فيما لا يتغير منها بتغير الزمان والمكان ، ولا يختلف باختلاف البيئات والأوطان كأحكام العقيدة والأخلاق والأسرة من زواج وطلاق وميراث .

(1) الموافقات جـ 4 ص 6.

ثانياً : لم ينهج القرآن في بيانه للأحكام منهج الكتب المؤلفة من حيث التقسيم والتبويب وتناول أحكام كل موضوع في فصل خاص به ، وإنما فرق الأحكام في سوره الكثيرة ، فلم يفرد لأي نوع من أنواع الأحكام الثلاثة التي أومأت اليها آنفا سورة أو اكثر ، وإنما وردت كل الأحكام القرآنية موزعة على آياته وسوره ، بل قد تكون الآية الواحدة متضمنة لأحكام متعددة في العقائد والعبادات والعلاقات الدولية والصبر في الجهاد ونحو هذا[1] .

قال الاستاذ الإمام : « إن القرآن ليس كتابا فنيا فيكون لكل مقصد من مقاصده باب خاص به ، وإنما هو كتاب هداية ووعظ ينتقل بالإنسان من شأن من شئونه إلى آخر ، ويعود إلى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة مع التفنن في العبارة ، والتنويع في البيان ، حتى لا يمل تاليه وسامعه من المواظبة على الاهتداء »[2] .

وهذا التنوع في عرض الأحكام لا يعني أنه لا تناسب بين حكم وآخر يختلفان من حيث الموضوع ، وذلك لأن الأحكام

---

(1) مثل الاية 177 في سورة البقرة .

(2) تفسير المنار حـ 2 ص 451.

القرآنية كلها تخرج من مشكاة واحدة ، وتصب نحو غاية واحدة ، فهي من الله إلى خلقه ليعبدوه بها ، ومن ثم لا تناقض بينها أو تنافر ، فهي جميعها يأخذ بعضها بحجز بعض ، والتناسب بين أنواعها من الجلاء والوضوح بحيث لا يحتاج إلى عناء كبير في تلمسه ، وإن رأى غير هذا بعض العلماء والباحثين قديما وحديثا [1] ، وذهبوا إلى أن التنوع في عرض الأحكام لا يقتضي بالضرورة أن يكون هناك تناسب بين آية وأخرى تختلف معها في الحكم .

وقد خاض المستشرقون في هذا الموضوع ، وحاول جمهورهم أن يحكم على القرآن بالاضطراب والفوضى في سرد الأحكام ، وأنه هذا دليل على أن ذلك الكتاب ليس وحيا صادقا ، وإنما هو أمشاج من المعلومات والأحكام تلقفها محمد من اليهود والنصارى وعادات العرب وصاغها على هذا النحو المضطرب .

ومن هؤلاء المستشرقين المستشرق الفرنسي بلا شير ، فقد قال فيما كتبه عن القرآن ، وهو دراسة مملوءة بالأخطاء الفاحشة : « إن المجموعة المعنونة بسورة البقرة توضح جيدا

---

(1) انظر الاتقان حـ 3 ص 322 ، ومباحث في علوم القرآن ص 152.

بتداخل العناصر المتنوعة اختلاف ما جمع من المواضيع ، ومن الواضح هنا أن مادة عدة حلقات من النصوص قد جمعت على تجاوز ظاهر الاصطناع ، ففي سور متعددة ندرك بسهولة تداعي الأفكار الذي أفضى إلى التوفيق ما بين المنزلات المتلقاة في المدينة على فترات متباعدة بلا شك والذي أدى حتى إلى تنظيم هذه المنزلات في تعاقب مؤات لروح العصر »[1] .

وآراء الاستشراق بوجه عام في القرآن والسنة والحضارة الاسلامية تفتقر إلى الموضوعية ، والتحرر من عقابيل التعصب والرغبة في الكيد والافتراء وإن زعموا أنها تقوم على المنهجية العلمية ولا تتغيا سوى معرفة الحقيقة .

والمستشرقون ما داموا يرون أن القرآن كتاب بشري ؛ وليس وحيا الهيا فإنهم لن يؤمنوا بما يؤمن به المسلم من ترابط الآيات والأحكام ، ومع هذا يمكن مناقشتهم فيما يدلون به من آراء حول ظاهرة توزع الأحكام وتنوعها في القرآن بأن مرد هذا إلى أن جميع ما جاء به القرآن من أحكام وساقه من قصص وأمثال لا يخرج عن موضوع واحدة وهو إفراد الله وحده بالعبادة ، ومن ثم كان التناسب بين الآيات والسور وإن

---

(1) القرآن ترجمة رضا سعادة ص 69.

تنوعت وتعددت أحكامها قائما بينها ؛ لوحدة الغاية منها ، ثم هي بعد هذا تلائم الفطرة الانسانية وصالحة للتطبيق الدائم ، فلا تناقض أو اضطراب ولا جمود أو قصور ، وهذا التنقل من موضوع إلى آخر يصبح من عوامل تهيئة النفس للامتثال في شوق ورغبة ، وربما دفع عنها ما قد يطرأ عليها من أسباب الملل والسأم إذا قدمت إليها الأحكام مرتبة مبوبة على نحو ما هو معروف في المؤلفات البشرية .

وبالاضافة إلى هذا يوحي تنوع الأحكام القرآنية في السورة الواحدة وفي سور الكتاب كله بأن هذه الأحكام واجبة الالتزام على درجة سواء فمن فرط في بعضها كان كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، وقد حذر القرآن من هذا ، وبين أن التفريق بين أحكامه لون من الكفر به ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب ، وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب** ﴾[1] .

ودفعا لتلك الشبهات حول تنوع الأحكام والآيات في القرآن تحدث العلماء عن المناسبات بين هذه الآيات

---

(1) الآية 85 في سورة البقرة .

والاحكام ، وأصبح علم المناسبة من العلوم القرآنية العظيمة وقد أفرده بعضهم بالتأليف[1] ، ووضعوا له القواعد والمبادىء التي تفسر المناسبات بين الآيات ، ومن هذه القواعد ما ذكره صاحب[2] الاتقان قال: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة سورة . .

ثالثاً : مزج القرآن في تقريره للاحكام بين الترغيب والترهيب ، فلا يذكر حكم غالبا دون الإشارة إلى الغاية من تشريعه ، وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، ومن شأن هذا

---

(1) انظر الاتقان حـ 3 ص 322.

(2) المصدر السابق حـ 3 ص 327.

أن تقبل النفوس على الالتزام بكل الأحكام إيمانا بها ، وشعورا بهيبتها والفائدة منها في العاجلة والآجلة ، وبذلك يظل الوازع الديني في النفس البشرية حيا قويا يحول بين المرء وما تزين به شياطين الانس والجن . إن الانسان بهذا الوازع يحترم الأحكام لذاتها ، ويقوم بما يجب عليه نحوها في حرص ورغبة .

قال الامام الشاطبي : « إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه وسوابقه أو قرائنه وبالعكس ، وكذلك الترجية مع التخويف وما يرجع إلى هذا المعنى مثله ، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار وبالعكس.؛ لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفا ، فهو راجع إلى الترجية أو التخويف »[1] .

ويمكن إدراك هذه الخصيصة في المنهج القرآني بالرجوع إلى أية آية تقرر حكما أو تشتمل على أمر أو نهي ، ومن ذلك مثلا ما جاء في سورة الأحزاب عن ابطال التبني ، قال الله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلْبَيْن في جَوْفه وما جَعل أزواجُكم اللائي تظاهِرون منهن أمهاتكم وما جعل

---

(1) الموافقات جـ 3 ص 358

أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ادْعوهم لآبائهم هو أقْسَطُ عند الله فإن لم تعلموا آباءَهم فاخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جُناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾[1] .

هاتان الآيتان في ابطالهما لعادة التبني وكذلك للظهار لم تقررا هذا دون أن ينضم إليه من معاني الترغيب والترهيب ما يحمل الإنسان على التسليم بحكمهما دون امتراء ، فالآية الأولى تؤكد في مستهلها على حقيقة ، وهي أن الله خلق للانسان قلبا واحدا فلا بد له من منهج واحد يسير عليه ، ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة وللوجود يستمد منه ، وبعد هذا الاستهلال تتحدث الآية عن ابطال الظهار والتبني ، وفي هذا الابطال تنظيم لعلاقات الأسرة على الأساس الطبيعي لها ، الأساس الذي يرفض كل سلوك يتعارض مع المنهج الواحد ، فهذا الظهار وذاك التبني قول بالأفواه لا يغير واقعا ، ولا ينشيء علاقة كعلاقة الدم والوراثة للخصائص التي تحملها النطفة ، وعلاقة المشاعر من كون الولد بضعة حية من جسم والده الحي .

---

(1) الآية 4 ، 5 في سورة الاحزاب .

وتختم الآيةبقوله تعالى: ﴿والله يقول الحق وهـو يهدي السبيل﴾ يقول الحق الذي لا يلابسه باطل ومن الحق إقامة العلاقات على تلك الرابطة الحقة المستمدة من اللحم والدم لا على كلمة تقال بالفم، وهـو يهـدى السـبيل المستقيم المتصل بناموس الفطرة الأصيل الذي لا يغني غناءه سبيل آخر من صنع البشر .

وتأمر الآية الثانية بالعدل في نسبة الولد لأبيه ، وفي ذلك إقامة للعلاقة الأبوية على أصلها الفطـري ، فإذا كنـا نجهـل آباءهم فهم اخواننا في الدين وموالينا ، وهي علاقة شعورية لا تترتب عليها التزامات محددة كالتزام التوارث والتكافل في دفع الديات ، وغير هذا .

وتختم الآية بنفي الجناح فيما أخطأ فيه المؤمن من سلوك ، مشيرة إلى أن التعمد هو طريق المؤاخذة ، فهي السماحة التي لا تكلف الناس ما لا يطيقـون ، وتغفـر لهـم ما لا يعلمـون [1] وهكذا لم يتقـرر الحـكم في صيغـة جافـة مجـردة عن معانـي الترغيب والترهيب كما هو الشأن في القوانين الوضعية . وإنما وردت في صيغة تخاطب العقل والقلب ، وتجمع بين الحـكم

---

(1) انظر في ظلال القرآن جـ 21 ص 121 — 125.

وأثره أو نتيجته ، ومن ثم تطاع هذه الأحكام بوازع الضمير قبل وازع السلطان .

رابعاً : يمتاز المنهج القرآني من حيث الاسلوب في تقرير الأحكام بأنه لم يرد كله في صيغة قاطعة في معنى معين لا يحتمل اجتهاداً أو خلافا ، فقد وردت بعض الأحكام في صيغة جازمة قاطعة لا تحتمل خلافا ، ولا يصح الاجتهاد فيها فهي قطعية الدلالة ، ويجب الإيمان بها فهي كالعقائد في وجوب اتباعها وعلى كل مكلف ، وأن من أنكرها أو أنكر بعضها فهو خارج عن الملة ، ومن ذلك آيات وجوب الصلاة والزكاة وحرمة الزنا والقذف ، وأكل أموال الناس بالباطل ونحو هذا من كل ما هو معلوم من الدين بالضرورة .

وجاءت بعض الأحكام الأخرى في صيغة قابلة لاختلاف الإفهام ومن ثم كانت مجالا للبحث والاجتهاد واختلاف الآراء ، ومن أمثلة هذا تحديد القدر الذي يحرم في الرضاع ، وتحديد المسح بالرأس في الوضوء ، ووجوب النفقة للمطلقة طلاقا بائنا ، وتحديد زمن العدة للمطلقة غير الحامل وغير المتوفى عنها زوجها ، هل تعتد بثلاثة أطهار ، أو بثلاث حيضات إلى غير ذلك من الأحكام التي كانت موضع خلاف

بين المجتهدين . وهذا النوع من الأحكام لا يحتل منزلة العقائد في وجوب الايمان بها ، لأنها آراء واجتهادات وليس بعضها أولى في الأخذ به من البعض الآخر ، ومن ثم كان من أنكر فهما معينا تحتمله الآية كما تحتمل غيره لا يكون منكرا لحكم معلوم من الدين بالضرورة ، ولذلك يأخذ كل مجتهد بما ترجح لديه ، ولا يجوز له أن يلزم غيره بما يراه اللهم إلا إذا كان مقلدا [1] .

وكما نوع القرآن في أسلوبه من حيث القطعية وعدمها في الدلالة نوع أيضا في بيان الحلال والحرام ، فلم يعبر في كل ما كان واجبا بمادة الوجوب ، ولا فيما هو محرم بمادة الحرمة ، بل تارة يدل على ذلك بالأمر بالفعل أو النهي عنه كقوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم** ﴾[2] ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾[3] وتارة يدل على الوجوب أو الحرمة بالاخبار بأن الفعل مكتوب أو مفروض أو بأنه حلال أو حرام أو خير أو موصل إلى البر أو بأنه شر أو ليس من البر كما في قوله عز من

---

(1) انظر الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص 506.

(2) الآية 10 في سورة المنافقون .

(3) الآية 195 في سورة البقرة .

قائل : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً مَوْقُوتا ﴾ [1] ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم ﴾ [2] ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ﴾ [3] ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ﴾ [4] الآية ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾ [5] و﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [6] وقوله ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم ﴾ [7] وقوله ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من أبوابها ﴾ [8] .

وتارة يدل على الوجوب أو الحرمة بما يرتبه على الفعل في العاجل والآجل من خير أو شر أو نفع أو ضر كقوله سبحانه : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ إلى

(1) الآية 103 في سورة النساء .
(2) الآية 50 في سورة الاحزاب .
(3) الآية الخامسة في سورة المائده .
(4) الآية 23 في سورة النساء .
(5) الآية 220 في سورة البقرة .
(6) الآية 92 في سورة آل عمران .
(7) الآية 180 في سورة آل عمران .
(8) الآية 189 في سورة البقرة .

قوله ﴿ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ [1]
وقوله : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتُكْوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ [2] إلى غير ذلك من الأساليب الكثيرة التي نوعها الحق تبارك وتعالى في كتابه ترغيبا لعباده وترهيبا وتقريبا إلى أفهامهم [3] .

ومع كل ما أسلفته عن منهج القرآن في تقرير الأحكام روعي في بعض الأحكام التدرج في التشريع كأحكام الخمر والميراث ، كما روعي في كل الأحكام القرآنية اليسر ورفع المشقة وعدم الحرج ، فليس فيها ما تضيق به صدور المؤمنين ، أو يكون في القيام به عليهم عنت وإرهاق ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [4] ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حَرَج ﴾ [5] .

---

(1) الآية 1 — 11 في سورة المؤمنون .
(2) الآية 34 ، 35 ، في سورة التوبة .
(3) انظر أصول الفقه الاسلامي للشيخ زكي الدين شعبان ص 50 ط جامعة بنغازي .
(4) الآية 180 في سورة البقرة .
(5) الآية 78 في سورة الحج .

تلك أهم سمات المنهج القرآني في تقرير الأحكام عرضت لها بايجاز وإجمال ومنها يتضح تفرد القرآن بهذا المنهج الذي يعد دليلا من أدلة اعجازه ، ومصدره الالهي ، وأن بشراً لا يستطيع أن يؤلف كتاباً على هذا النحو من الاجمال والتوزيع وتنوع الأسلوب والمزج بين الاحكام التكليفية ومعاني الترغيب والترهيب ، ومراعاة الطاقة البشرية فلا تكليف إلا بما يطاق ﴿ لا يُكلّف الله نفسا إلا وسعها ﴾ [1] إنها قدرة الله التي أتقنت كل شيئا صنعا ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

(1) الآية 286 في سورة البقرة .



الفصل العاشر

« تحمل القرآن وآداب تلاوته »

إن تحمل القرآن ؛ أي حفظه فرض كفاية على الأمة ، فيجب أن يكون في كل جيل منها عدد من حفظة كتاب الله ، وإذا فرطت في هذه الفريضة ولم يقبل على تحمل كتاب الله مسلم أثمت الأمة كلها ، وعدت مفرطة في مصدر هدايتها ، وطريق سعادتها ، وانتهت لا محالة إلى الغربة الكاملة عن دينها ، وباءت بالخسران في الدنيا والآخرة .

وإذا كان تحمل القرآن فرض كفاية فإن تعليمه فرض كفاية أيضا ، فيجب أن يكون في كل جيل من يقومون بتعليم القرآن للناشئة ، وهذا التعليم من أفضل القرب ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه »[1]

والطريق الأمثل إلى حفظ القرآن يكون بالسماع من لفظ الشيخ والقراءة عليه ، فلا يكفي السماع دون القراءة ، كما لا

(1) رواه البخارى في كتاب فضائل القرآن .

يكفي الاعتماد على المصحف وحده في الحفظ ؛ لأن كيفية الأداء في تحمل القرآن مهمة وأساسية ، ولا سبيل إليها إلا عن طريق السماع من لفظ الشيخ والقراءة عليه .

إن حفظ القرآن لا يكون صحيحا مقبولا شرعا إلا إذا خضع للأصول والقواعد التي تواضع عليها علماء التجويد ، فالنص المقدس ليس كغيره من النصوص في تلاوته وحفظه ، ومن ثم كان لا مناص لمن يحرص على حفظ القرآن ، وفقا لتلك الأصول والقواعد من التلقي عن شيخ دارس لعلم التجويد .

إن التجويد يعني اعطاء الحروف حقوقها وترتيبها من حيث نطقها ومخرجها دون اسراف ولا افراط ولا تكلف ، وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن ام عبد » يعني ابن مسعود ، وكان رضي الله عنه قد أُعطى حظاً عظيماً في تجويد القرآن . ولا شك أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده هم متعبدون بتصحيح الفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراء المتصلة بالحضرة النبوية . وقد عدَّ العلماء القراءة بغير تجويد لحنا ، وقد قسموا اللحن إلى جلي وخفي ، والأول هو الذي يخل بالالفاظ اخلالا

ظاهرا يشترك في معرفته علماء القراءة وغيرهم كالخطأ في الاعراب ، والثاني يخل اخلالا خفيا بالألفاظ ، ويختص بمعرفته علماء القراءة الذين تلقوه من أفواه العلماء ، وضبطوه من الفاظ أهل الأداء ، مثل الامالة والادغام والترقيق والتفخيم '[1] .

ولا شك في أن حافظ القرآن لن يستطيع ان يكون حافظا مجودا دفعة واحدة ، فهو غالبا ما يحفظ أولا دون مراعاة دقيقة لقواعد التجويد وأصول التلاوة ، ثم يتوفر على دراسة هذه القواعد وتطبيقها في نطقه وقراءته حتى يتم له مع التحمل حسن الأداء .

وكانت الأمة الإسلامية وما تزال لا تألوا جهدا في تحفيظ القرآن للناشئة من أبنائها حتى في أحلك عهود الضعف والتخلف والتبعية لغيرها ، وقد كان هذا من أهم عوامل المحافظة على شخصية الأمة الاسلامية ، وحماية لغة القرآن من الذبول والدثور ، فالاستعمار الفرنسي مثلا في الشمال الافريقي وبخاصة في الجزائر حاول بكل الوسائل القضاء على الشخصية الاسلامية واللغة العربية ، ولكن الكتاتيب في

---

(1) انظر الاتقان جـ 1 ص 281.

القرى والبوادي كانت السد المنيع الذي حمى الشعب الجزائري من تيار الفرنسة ، وظلت لدى هذا الشعب الأبي بقية حية من عقيدته وعروبته انطلقت بعد الاستقلال في قوة هادرة نحو الأصالة ، والتخلص من أوزار الاستعمار .

والذي يلاحظ الآن أن الكتاتيب التي كانت تقوم بمهمة تحفيظ القرآن قد توارت بوجه عام على مستوى العالم الاسلامي ، ولم تستطع المدارس القرآنية أن تحل محلها وتنهض برسالتها، وليست المسابقات القرآنية ـ على ما لها من أثر في حفز الهمم لحفظ القرآن ـ وسيلة عملية لاستمرار الاقبال على تحمل كتاب الله كما كان السلف يفعلون .

ولست أقصد بهذا العودة إلى نظام الكتاتيب وأسلوبها العتيق في تحفيظ القرآن ، وإنما أرمي إلى أن الالتزام بفرض الكفاية هذا أصبح يقتضي من المسلمين كافة تخطيطا علميا مدروسا ، حتى لا نهجر القرآن شيئا فشيئاً فتهجرنا حياة القوة والعزة والكرامة .

على أن تحمل القرآن ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة لتوثيق عرى الصلة بيننا وبين هذا الكتاب الذي يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ومن ثم يجب أن يصحب الحفظ الفهم

الذي يتلاءم وسِنّ الحافظ ؛ ليكون ذلك توطئة للعمل بتعاليم القرآن وآدابه .

والقرآن كتاب هداية وتشريع كما أنه كتاب لغة وبيان عربي فريد ، فإذا شئنا للأجيال الصاعدة تعلما للعربية يجعلهم أقدر على فهم نصوصها والتعبير البليغ بها فإن القرآن يجب أن يكون العمدة والمصدر الأول لهذا ، علينا أن نقدم قواعد اللغة وأساليب بيانها من خلال النصوص القرآنية .

إن الكلمة القرآنية يجب أن تسود معجمنا اللغوي في التعبير والكتابة الأدبية والعلمية ؛ ليظل للاسلوب العربي أصالته وقوته ، وتحمل القرآن كله أو بعضه والتعرف على سماته البيانية واعجازه البلاغي هو السبيل الأمثل لتحقيق ذلك .

إن الانجليز يدرسون لصغارهم الكتاب المقدس لا من حيث مضامينه الدينية ، ولكن من حيث أسلوبه وبلاغته ، لأن دراسة اللغة من خلال نص مقدس يضفي عليها هالة من الاكبار والاهتمام والحرص الشديد على إتقان اللغة ؛ لأن في ذلك لونا من الطاعة والتقديس للمصدر الذي يمدنا بالمادة اللغوية ، ونحن أولى من الانجليز[1] وغيرهم في أن نوثق

(1) انظر مجلة الدوحة العدد 65 مايو سنة 1981 ص 20.

العروة بين القرآن ودراسة لغته ، حتى نعالج ما نشعر به في هذه الأيام من عزوف عن العربية ، واقبال على سواها من اللغات ، حتى بتنا نشكو من ضعف المستوى في الكتابة العربية ، وهبوط القدرة على التغيير بها لدى طلاب المراحل الدراسية المختلفة .

إن مشكلة اللغة العربية في واقعنا المعاصر حقيقة يلمسها الجميع ، ولكن الطب لها ما زال بعيداً عن مكمن الداء ، وفي رأيي أن أولى خطوات العلاج لتلك المشكلة تبدأ من الربط الحميم بين اللغة والعقيدة ، وأن نربي في الناشئة روح الاعتزاز بلغته العربية ، لأن إجادتها والتمكن منها جزء من الدين ، والتفريط فيها ، وعدم اتقانها يعد ثلما في عقيدة المسلم ، وضعفا في دينه ويقينه ؛ لأن القرآن وهو شريعة الحياة جاءنا في أفصح بيان ، ولن نستطيع أن ندرك معانيه ونقف على طرف من أسراره إلا إذا أتقنا لغته ، ولن نتقن هذه اللغة بدون أن نتخذ من نصوص الكتاب العزيز مادة الدراسة والتعليم ، وفق أسلوب عصري لا يغفل عوامل التطوير ، ولكنه في الوقت نفسه لا يقطع الصلة بالتراث والماضي العريق .

إن تحمل القرآن إذن يحقق في حياتنا هدفين متلازمين

هما : المحافظة على القرآن من المحرفين والحاقدين ، والعمل بالتشريع القرآني ، ودراسة اللغة العربية ، وبدون هذا وذاك لا يمكن أن تحيا أمة وصفها كتاب الله بأنها خير أمة أخرجت للناس .

أما آداب تلاوة القرآن فكثيرة من أهمها أن يقرأ القارىء بفهم وتدبر وأن يفكر في معنى ما يلفظ بلسانه ، والا يكون من هؤلاء الذين يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم وحناجرهم .

إن التلاوة كالحفظ ليست غاية في ذاتها ، إنها الوسيلة للفهم والادراك ، وصولا إلى العمل الصحيح بالأحكام القرآنية ، وما لم تكن محققة لهذه الغاية فلا نفع فيها ، وتصبح حجة على الانسان يوم الدين .

لقد بين الله في كتابه المجيد أنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع وتصدع من خشية الله ، وهذا مثل يضربه الحق تبارك وتعالى للإنسان الذي خلق من طين ، ولكن الله خصه بالعقل والوجدان والاحساس ، فهل يكون أدنى من الجماد تأثرا وخشية لخالقه ؟ ، إنه إذا تلا آيات الله دون أن تحدث في نفسه شعورا بالخوف من العذاب ، والطمع في المغفرة والثواب ، وتذكراً بآلاء الله يحمله على الطاعة والشكر للمنعم

المتفضل الذي لا تحصى آلاؤه ، فهو الخالق الرازق المعبود وحده ولا معبود سواه ـ إذا لم تحدث التلاوة هذه المعاني ونحوها فإنها لا تكون تلاوة مقبولة ، ولا جدوى منها للقارىء في عاجلته وآجلته .

وإذا كان من يتلو القرآن مطالبا بأن يفكر ويتدبر فيما يقرأ ، فإن من يسمع القرآن مطالب أيضا بالاستماع والانصات ، للعظة والاعتبار عن طريق فهم الآيات وتدبر معانيها ، فذلك سبيل الرضوان والرحمة ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾[1] .

وما أكثر ما نسمع القرآن ، وما أكثر ما نتلوه أيضا ، ولكن ما أقل ما نحصل عليه من خير من وراء هذا وذاك ؛ لأننا لا نؤدي حق القرآن في التدبر والتفكر فيه ، لقد أصبحت قراءتنا لكتاب الله عادة لا عبادة ، نستهل به احتفالاتنا وبرامجنا الاذاعية ونختم به هذه البرامج وتلك الاحتفالات ، ويقرأ القارىء حزبا أو أكثر كل يوم وكأنه لم يقرأ شيئا ؛ لأنه سلوكه لا يعكس معاني ما قرأ من الآيات في أغلب الأحوال ، وهكذا تحولت صلتنا بالقرآن إلى علاقة شكلية لا تعدو النطق بالحروف

---

(1) الآية 204 في سورة الأعراف .

والألفـاظ ولا تفقـه أسرار ما تشتمـل عليه الآيات من احـكام وتوجيهات .

ومن آداب تلاوة القرآن المستحبة أن يكون القارىء عل طهارة ، فمن يتلو كلام رب العالمين الذي يحب التوابين ويحب المتطهرين عليه أن يكون في حالة من الطهارة المادية والمعنوية التي تخلق بتلاوة هذا الكلام ، عليه أن يكون طاهـر الثوبْ والبدن ، طاهر الفؤاد والقلب من أوضـار الحياة ، مقبـلا في شوق على التلاوة يريد أن يطهر نفسه مما يكون قد ألم بها من الأدران ، وعلق بها من المعاصي والآثام علّه يلقـى ربـه وهـو راض عنه.

والمسلم الذي يذوق حلاوة القرآن ونعمة تلاوته لا يشبع منها أبدا ، ويصبح منهوما كلما ازداد قراءة ازداد رغبـة فيهـا وحبا لها وتعلقا بها ، وكان من الذين مدحهم القرآن بأنهم يتلون آيات الله آناء الليل ، وهؤلاء من الصالحين الفائزين .

وقد وردت في السنة الصحيحة عـدة أحاديث في الحض على قراءة القرآن ، وأثر هذه القراءة في حياة الإنسان ، منها ما روى في صحيح مسلم من حديث ابن عمر: «لاحسد إلا في اثنين : رجـل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آنـاء الليل وآنـاء

النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل والنهار » .

إن من يكثر من تلاوة القرآن يكون مسلما مضبوطا ، ولكن عليه ألا يغفل عن التدبر والتفكر ، والا يكون الاكثار من القراءة على حساب تشرّب المعاني ، واستشعار رقابة الله الدائمة على الانسان ، ومن أجل ذلك استحب العلماء الا يختم القارىء القرآن في أقل من أسبوع حتى لا تطغى كثرة التلاوة على الفهم والتذكر .

إن المسلم الذي يتلو كتاب الله بقلب لم تشغله أعراض الحياة يدرك في كل مرة من المعاني ما لم يدركه من قبل ، ومن هنا كان حرص المسلم على مداومة التلاوة ؛ لأنه لا يسأم منها ، بل يجد فيها من الحلاوة واللذة النفسية والشعورية ما يجعله يعيش ـ وهو يقرأ ـ لحظات من الحياة النورانية لا تعدلها الدنيا بما فيها .

ومن آداب التلاوة الجهر بها في قصد ، وألا يقطعها القارىء لحديث مع غيره إلا لضرورة ، وأن يكبر في مستهل كل سورة قبل البسملة ابتداء من سورة ﴿ **والضحى** ﴾ إلى أن يختم القرآن .

وكل من يختم كتاب الله تلاوة يصحبها التدبر والخشوع

يدعو بما شاء له من الدعاء ، يدعو لما وفقه الله اليه ، ويسأله المزيد من فضله ونعمه ، وقد أُثرت بعض الأدعية في هذا ومنها ﴿ اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماما ونورا وهدى ورحمة ، اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت ، وارزقني تلاوته آناء الليل ، واجعله لي حجة يا رب العالمين ﴾ .

هذا طرف من آداب تلاوة القرآن ، وتلك كلمة مختصرة عن تحمله ، ولعل فيما أوردته حول هذا الموضوع تذكرة لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا .

«خـاتمة»

يتضح من الفصول السابقة ـ على ايجازها ـ أن الكتاب الكريم نال من العلماء عناية فائقة ، وقد تنوعت هذه العناية واتخذت أشكالا مختلفة ، فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه ، وأخرى إلى أسلوبه واعجازه ، وثالثة إلى كتابته ورسمه ، ورابعة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك .

ولقد أفرد العلماء كل ناحية من هذه النواحي بالبحث والتأليف ، ووضعوا من أجلها العلوم ودونوا الكتب ، وتباروا في هذا الميدن الواسع أشواطا بعيدة ، حتى زخرت المكتبة الاسلامية بتراث مجيد من آثار سلفنا الصالح ، وعلمائنا الأعلام ، وأصبح بين أيدينا الآن مصنفات متنوعة وموسوعات قيمة فيما نسميه علم أسباب النزول ، وعلم التفسير وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم اعجاز القرآن ، وعلم التجويد وعلم اعراب القرآن ، وما شاكل ذلك من العلوم القرآنية ، مما يعتبر بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب ، وبات هذا المظهر معجزة جديدة مصدقة لقوله سبحانه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

والعلوم القرآنية على تنوعها تفسر القرآن أو تعين على تفسيره ، وكان الأحرى أن تسمى بالعلوم التفسيرية بيد أن مصطلح العلوم القرآنية ذاع بين العلماء ، واتخذه بعضهم عنوانا لكتب ودراسات عرضت بالبحث لتاريخ القرآن وعلومه ، ومن ثم فلا مشاحة في هذا الاصطلاح . .

وإذا كان مفهوم التفسير القرآني يتجاوز شرح الفاظ القرآن وبيان ما تشتمل عليه الآيات من الأحكام والعظات إلى الكشف عن أوجه اعجاز القرآن ، وأنه وحي من لون حكيم خبير فإن ما عرضت له في هذه الدراسة من أبحاث في طائفة من العلوم القرآنية يدور حول المعاني التالية .

أولاً : فهم القرآن ؛ للعمل به والتعبد بتلاوته .

ثانياً : بيان أن هذا القرآن معجزة خالدة ، وأنها خير شاهد على عالمية القرآن ، وأنه دعوة للناس كافة .

ثالثاً : وجوب المحافظة على القرآن عن طريق تحمله وكثرة قراءته ، ودراسة اللغة العربية من خلال آياته .

ولم يغفل ما عرضت له من أبحاث الإشارة إلى ما صدر عن المستشرقين من آراء حول القرآن الكريم ، وهؤلاء بالنسبة للقرآن فريقان : فريق آمن بهذا الكتاب وحيا منزلا من عند الله

فآمن به واتبعه ، وهؤلاء عدد قليل جدا . وفريق لم يؤمن بالقرآن كتابا سماويا ، وهؤلاء عامة المستشرقين وهم يتفاوتون في موقفهم من القرآن الكريم ، فمنهم ـ وهم عدد قليل ـ من أشاد بالقرآن وتحدث عنه حديثا طيبا ؛ لما جاء به من تشريعات وتضمنه من مبادىء كرمت الإنسان أعظم تكريم ، ولكنه لا يعزو هذا إلى الوحي الالهي ، وإنما يعزوه إلى عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم أشاد به ، واعتبره بطلا من أبطال التاريخ الذين أسهموا في تقدم البشرية ، والحضارة الانسانية .

أما العدد الغفير من المستشرقين ، فقد ألفوا عن القرآن كتبا كثيرة ، ولم يدعوا جانبا من جوانبه إلا وكتبوا فيه وكانوا ينطلقون فيما كتبوا من مبدأ بشرية هذا الكتاب ، ولذلك حاولوا رد مصادره إلى أصول بشرية ، أو إلى مصادر دينية اعتمد عليها محمد في تأليف هذا الكتاب كما يزعمون .

ولست هنا في مجال تتبع ما قاله الاستشراق في القرآن ونقده ، ويمكن على وجه الإجمال الحكم على آراء المستشرقين في الكتاب العزيز بأنها تفتقر إلى الموضوعية والأمانة العلمية ، وأنها تتغيا هدفا واحدا هو تشويه القرآن ، والطعن في تاريخه ،

وذلك في محاولة للحد من تأثيره ، وانتشاره ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[1] .

إن على المفكرين المسلمين مسئولية مزدوجة ، مسئولية تقديم القرآن للناس نقيا من شوائب الاتجاهات الذاتية والأفكار المذهبية ، ومسئولية التصدي لتلك التحديات الباغية التي تريد لنا أن نتخلى عن القرآن ، وأن نولي وجْهَنا لا شطر ديننا وإنما شطر المذاهب الوضعية ، حتى لا يظهر المارد الاسلامي مرة أخرى ، يعيد تاريخه المشرق وماضيه العريق .

وبعد فهذا بعض ما رغبت في تقديمه عن كتاب الله أطمع أن يكون فيه ما يجدي ، واستغفر الله من عثرات القلم وهفوات الفكر ، وأسأله سبحانه أن يجمع كلمة المسلمين على ذكره الحكيم وصراطه المستقيم ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[2] .

والحمد لله أولا وأخيرا .

د . محمد الدسوقي

---

(1) الآية 30 في سورة الانفال .

(2) الآية 153 في سورة الانعام .

«المصادر والمراجع»

«القرآن الكريم»

1 ـ الاتقان في علوم القرآن للسيوطي .
2 ـ إرشاد الفحول للشوكاني .
3 ـ أسباب نزول القرآن للواحدي .
4 ـ الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت .
5 ـ أصول الفقه للشيخ زكي الدين شعبان .
6 ـ اعجاز القرآن للباقلاني .
7 ـ الاعجاز البياني للقرآن الكريم للدكتور عائشة عبد الرحمن .
8 ـ البداية والنهاية لابن كثير .
9 ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي .
10 ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي .
11 ـ تاريخ التراث العربي للدكتور فؤاد سزكين .
12 ـ تاريخ القرآن للاستاذ ابراهيم الابياري .
13 ـ تاريخ المذاهب الاسلامية للشيخ محمد ابو زهرة .
14 ـ تفسير البحر المحيط لابي حيان .
15 ـ تفسير الطبري .
16 ـ تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .
17 ـ تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت .
18 ـ تفسير القرطبي .
19 ـ تفسير الكشاف للزمخشري .

20 ـ التعبير الفني في القرآن للدكتور شيخ بكر امين .
21 ـ دراسات قرآنية للدكتور عدنان زرزور .
22 ـ دراسات في القرآن الكريم للدكتور السيد احمد خليل .
23 ـ سيرة ابن هشام .
24 ـ السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للاستاذ محمد أبو شهبة .
25 ـ صحيح البخارى .
26 ـ صحيح مسلم .
27 ـ علم أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف .
28 ـ فتح الباري لابن حجر .
29 ـ في ظلال القرآن لسيد قطب .
30 ـ في علوم القرآن للدكتور محمد عبد السلام كفافي .
31 ـ القرآن الكريم للشيخ امين الخولى بحث منشور في دائرة معارف الشعب حـ ١
32 ـ القرآن الكريم للشيخ علي حب الله .
33 ـ القرآن والعلم الحديث للاستاذ عبد الرزاق نوفل .
34 ـ القرآن لبلاشير ترجمة رضا سعادة .
35 ـ القرآن المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة .
36 ـ القواعد الأصولية للشيخ منصور الشيخ .
37 ـ الكامل في التاريخ لابن الاثير .
38 ـ لا نسخ في القرآن للدكتور احمد حجازي السقا .
39 ـ لمحات في المكتبة والبحث والمصادر للدكتور عجاج الخطيب .
40 ـ مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح .
41 ـ معترك الأقران في اعجاز القرآن للسيوطي .
42 ـ المستشرقون وترجمة القرآن الكريم للدكتور محمد صالح البنداق .
43 ـ مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب .

44 ـ مع نزول القرآن للدكتور محمد محمد خليفة .
45 ـ مدخل للقرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز .
46 ـ من روائع القرآن للدكتور محمد سعيد البوطي .
47 ـ مقدمتان في علوم القرآن ت : أرثر جفري .
48 ـ مقدمة ابن خلدون .
49 ـ مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ عبد العظيم الزرقاني .
50 ـ الموافقات للشاطبي .
51 ـ النسخ في القرآن الكريم للدكتور مصطفى زيد .

دوريـــات

52 ـ مجلة الأزهر .
53 ـ مجلة الفكر ـ تونس .
54 ـ مجلة المرجع ـ تونس .
55 ـ مجلة منار الاسلام ـ أبو ظبي .
56 ـ مجلة الهلال ـ القاهرة .
57 ـ مجلة الدوحة ـ قطر .

للمؤلف

أولاً : كتب مطبوعة . .

1 — الاسلام والمستشرقون .

2 — حديث الإفك .

3 — الصيام في القرآن .

4 — التأمين وموقف الشريعة الاسلامية منه .

5 — الهجرة في القرآن .

6 — الاجتهاد في الفقه الاسلامي .

7 — في الثقافة الاسلامية .

8 — المال في الاسلام .

9 — طه حسين يتحدث عن أعلام عصره .

10 — أيام طه حسين .

ثانياً : كتب تحت الطبع .

1 — منهج البحث في العلوم الاسلامية .

2 — الحج في القرآن .

3 — الامام الشيباني وأثره في الفقه الاسلامي .

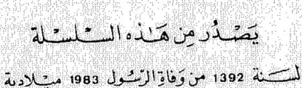
4 — الأسرة في الأدب العربي .

5 — دراسات اسلامية .

الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة



يصدر من هذه السلسلة

لسنة 1392 من وفاة الرسول 1983 ميلادية

عدد يناير

مأساة الخلافة في الإسلام — د. محمود السعيد الكردي

عدد إبريل

الطهارة — عاشور بريك الدمنهوري

عدد يوليو

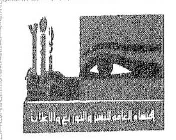
في تاريخ القرآن وعلومه — د. محمد الدسوقي

عدد أكتوبر

ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها — محمد فتح الله

الثمن

500 درهم داخل الجماهيرية



المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان